

# مصر

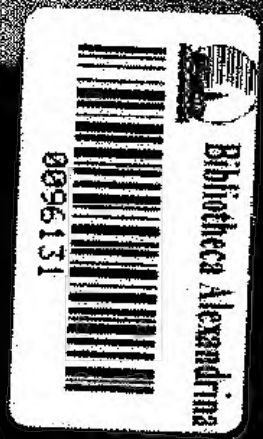
بين حملتي لويس وثابليون

دكتور

فرج محمد الوصيف

أستاذ الدعوة والفتاوى الإسلامية بكلية أصول الدين والدعوة

جامعة الأزهر



دار  
الكلمة  
للنشر والتوزيع



# مصريين حملتى لويس ونابليون

دكتور

فرج محمد الوصييف

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية أصول الدين والدعوة  
جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكلمة للنشر والتوزيع - مصر - المنصورة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

دار الكلمة للنشر والتوزيع - مصر - المنصورة

٣٨ ش الثورة (السكة الجديدة) ت ٥ ف: ٣٤٣١١٥ ص. ب: ١٦٧



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي الكريم ، وعلى آله وصحبه الغر الميامين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد :  
فإن أفضل ما تعتر به أمة - أى أمة - ذاكرتها التي تمثل أصالتها العقديّة والفكرية والأخلاقية والتاريخية وبالتالي هويتها العصرية التي تكسبها مكانتها على سطح المعمورة بين الأمم .

وفي المقابل فإن أخطر ما تواجه به الأمة - أى أمة - أن تُضرب في ذاكرتها من أعدائها أو أبنائها أنفسهم الذين يسعون تحت شعارات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب لتضييع هويتها ، وإذابتها في غيرها من الأمم الأخرى .

فطن أعداء الإسلام لذلك منذ زمن بعيد ، فحاكوا له ولأتباعه المؤامرات تلو المؤامرات ، وحاولوا تنفيذها بوسائل متعددة في ديار المسلمين حتى تمحى عن أمة الإسلام شخصيتها الحضارية العالمية التي جعلت لها مكانة مرموقة على سطح المعمورة بفضل هذا الدين ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾<sup>(١)</sup> ويقول : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) البقرة آية (١٤٣) .

(٢) آل عمران آية (١١٠) .

تميزت أمة الإسلام بهذه الشخصية حين كانت متمسكة بشرع ربها ، وبرزت مكانتها على الساحة العالمية ، وكان لمصر النصيب الوافر من هذه المكانة ، لذا كانت محط نظر الأعداء وموضع أطماعهم المتعددة ، فنالت من الكيد والتآمر ما يوازن مكانتها في العالم الإسلامي . ظهر ذلك في حلقات من سلسلة التآمر والكيد الصليبي على مراحل زمنية مختلفة ، منها حلقة الكيد الذي وضع مخططه على أرض مصر "لويس التاسع" الذي قاومه أبناء الأمة باسم الإسلام فانتصروا على جيشه الصليبي وأسروا بدار "فخر الدين بن لقمان" بالمنصورة ، وضع هذا الصليبي الخاقد مخططه كي تسير عليه الدول الغربية الصليبية وتحقق ما لم يحققه هو وأسلافه الصليبيون . وبالفعل سار الأخلاف على ما وضعه الأب الروحي والعسكري القديس "لويس التاسع" ، وسنحت الفرصة في العصر الحديث بغزو الفرنسيين مصر مرة أخرى بقيادة الصليبي المتغطرس "نابليون" وتمكنهم زمنا مسن ديار الإسلام ، وكان من آثار هذا الغزو العسكري الفكري تكوين طابور خامس من أبناء المسلمين لصنع ما لم يقدرُوا هم عليه بعد رحيلهم ، فصارت لــــهم في ديار المسلمين كتائب فكرية متعددة تعمل لحساب الأعداء - صليبين ويهوداً - وتولى وجهها شطره ، وجعلت من همها مسخ هوية الأمة الإسلامية لتذوب في الغرب الصليبي من خلال المؤسسات المختلفة في ديارنا الإسلامية ولا سيما في أرض الكنانة مصر (بلد الأزهر) .

والواجب على المسلم المعاصر أن يفتن لهذا الخطر الذي تعرضت له وتعيشه اليوم أمتة على أيدي الأعداء والأدعياء على السواء حتى يكون على بينة من الأمر ويسعى قدر جهده لإزالته وحتى يكون لبنة إيجابية في المجتمع لا منزويا عن الأحداث ولا تابعا ، فما هكذا يكون المسلم .

لأجل ذلك كان هذا الكتاب الذي بين يديك - أخي القارئ - الذي تعرض

لحمتين من الحملات الصليبية على ديارنا الإسلامية وما نتج عنهما من آثار خطيرة على حياتنا ولاسيما -أبناء مصر- الأولى مؤسسة ومُنظرة وهي حملة "لويس التاسع" في القرن السابع الهجري ( الثالث عشر الميلادي ) والثانية مُنقّذة للتنظيم وهي حملة "نابليون بونابرت" في القرن الثالث عشر الهجري ( الثامن عشر الميلادي ) وما نتج عنها من آثار تتجرع الأمة سمومها القاتلة حتى الآن .  
والله أسأل أن ينفع بهذا العمل صاحبه وأن يغفر له زلاته ، إنه على ما يشاء قدير وللإجابة سميع مجيب .

### **المؤلف**

**أ.د. فوج محمد إبراهيم الوصيف**

**منية النصر - دقهلية**





## مَهَيِّدٌ

تميز الإسلام — وهو دين الله الباقي حتى الآن وإلى أن تقوم الساعة الذي لم تمتد إليه يد التحريف والتغيير — بشموله وعالميته .

### شمول الدين :

الإسلام دين كامل شامل استوعب شؤون الحياة جميعها للفرد والمجتمع على السواء ، ما ترك صغيرة ولا كبيرة إلا تناولها إما بالنص الصريح في مصدره الكتاب والسنة ، وإما بالتوجيه والإرشاد الكلى العام ، قال تعالى : ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾<sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾<sup>(٣)</sup> .

هذا الشمول أكسب المجتمع المسلم هوية ذات شخصية مستقلة قائمة بذاتها دون أن يكون أبنائه ذيو لا تابعين لغيرهم ، بل رؤوساً متبوعين يؤخذ عنهم ؛ لأنهم بالإسلام صار لهم وجود حضارى على وجه الأرض .  
وصدق الله إذ يقول : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾<sup>(٤)</sup> ويقول : ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) النحل آية (٨٩) .

(٢) الأنعام آية (٣٨) .

(٣) الإسراء آية (١٢) .

(٤) البقرة آية (١٤٣) .

(٥) الأنبياء آية (١٠) .

فبالإسلام صار للأمم ذكر وشرف وحياة سعيدة تبوأَت بسببها مكانتها بين الأمم .

### عالمية الإسلام :

وإذا كان الإسلام ديناً كاملاً شاملاً أكسب معتنقيه هذه الميزة ، فهو أيضاً دين عالمي عام جاء لكل الناس في كل مكان ولكل زمان ، ما جاء لبقعة معينة ولا لزمان معين ولا لأناس بعينهم ، إنما جاء ليكون رسالة الله الخاتمة للجميع ، قال تعالى : ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ..﴾<sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾<sup>(٢)</sup> ، وقال تعالى : ﴿قل يا أيها الناس إنني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ..﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال رسول الله ﷺ : « وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة »<sup>(٤)</sup> .

هذه خصيصة للإسلام عرف بسببها من يوم أن بعث الله رسوله ﷺ ، وعلى أساسها قامت الدولة الإسلامية الأولى بالمدينة ، وعلى أساسها أيضاً كان إرسال الرسول ﷺ كتبه إلى الملوك والقواد ورؤساء الأديان يدعوهم إلى الإسلام .  
فمن أنس رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ : « كتب إلى كسرى ، وإلى قيصر ، وإلى النجاشي وإلى كل جبار ، يدعوهم إلى الله تعالى ، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ »<sup>(٥)</sup> .

(١) سبأ آية (٢٨) .

(٢) الأنبياء آية (١٠٧) .

(٣) الأعراف آية (١٥٨) .

(٤) البخاري على الفتح ٥١٩/١ . كتاب التيمم . دار الريان للتراث . القاهرة . الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

(٥) مسلم بشرح النووي ١١٢/١٢ . دار الريان للتراث . القاهرة . الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

كما كان الانتشار في كل مكان تعميراً للأرض ومهدياً للناس وتنويراً للعقول وإخراجاً للبشر من ظلمات الكفر والجهل والسلوك المعوج والمفاهيم المغلوطة ، قال تعالى : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم . ﴾<sup>(١)</sup>

وعبر عن ذلك أحد الدعاة الفاتحين رباعي بن عامر رضى الله عنه فقال لرستم الرجل الثاني بعد يزدجرد ملك الفرس حين سأله : ” ما جاء بكم ؟ قال : الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه ندعوهم إليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضى إلى موعود الله . قال : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى .“<sup>(٢)</sup> .

وحقق الله تعالى للصحابة موعوده بالحسنين ، فمكّن لهم في الأرض ، ونشروا النور في كل مكان حلوا فيه ، وولد الناس في البلاد التي فتحت بالإسلام من جديد ، الإسلام الذي أعاد لهم إنسانيتهم وكرامتهم التي أهدرت على أيدي طغاة البشر ، وتنسموا الحياة الكريمة التي قال الله عنها : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم .. ﴾<sup>(٣)</sup> فأنعم بها من حياة تحت سقف دولة الإسلام وبه .

<sup>(١)</sup> المائدة : آية (١٦٥) .

<sup>(٢)</sup> تاريخ الرسل والملوك للطبري ٥٢٠/٣ . دار المعارف . الثالثة . بدون .

<sup>(٣)</sup> الأنفال . آية (٢٤) .

## مكانة مصر بالإسلام :

ومن البلاد التي نعمت بالنور الإلهي مصر التي قدر الإسلام لها مكانها ومكانتها ، كيف لا وقد أشاد القرآن الكريم بها في أكثر من موضع ، حتى لقد ورد ذكرها في القرآن صراحةً وكنيةً - على ما ذكر السيوطي - أكثر من ثلاثين مرة<sup>(١)</sup>.

وأشاد الرسول ﷺ بها وبأهلها في أحاديث بروايات متعددة ، من ذلك قوله ﷺ : « إنكم ستفتحون مصر ، وهي أرض يسمى فيها القسراط ، فإذا فتحتموها فاحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمةً ورحماً - أو قال : ذمةً وصهرًا... »<sup>(٢)</sup>.

قال النووي في شرحه للحديث : " قال العلماء : القسراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما ، وكان أهل مصر يكترون من استعماله والتكلم به . وأما الذمة فهي الحرمة والحق ، وهي هنا بمعنى الدمام . وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم . وأما الصهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم .

وفيه معجزات ظاهرة لرسول الله ﷺ ، منها إخباره بأن الأمة تكون لهم قوة وشوكة بعده بحيث يقهرون العجم والجبابة ، ومنها أنهم يفتحون مصر . " <sup>(٣)</sup>.

وقال ﷺ : « إذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : ولم يا رسول الله قال : « لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة » <sup>(٤)</sup>.

(١) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١/٥-٩ . عيسى الحلبي . الأولى ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

(٢) مسلم شرح النووي ٩٧/١٦ . كتاب الفضائل . باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر .

(٣) النووي على مسلم ٩٧/١٦ .

(٤) أخرجه ابن عبد الحكم وهو في حسن المحاضرة ١/١٤-١٥ .

انظر - يا رعاك الله - في هذا الحديث وتأمله جيداً ، وكيف أمر الرسول ﷺ فيه باتخاذ الجند الكثيف من مصر ، وكيف أنهم حير أجناد الأرض ، وكيف أنهم في حالة تأهب دائم واستعداد لرد أى هجوم عدوانى على البلاد واعتقاد وأفكار العباد ، لأنهم في "رباط" الذى يفيد الجند والنشاط والسترقب وعدم التراخى ، إذ مصر بأهلها وأرضها موضع طمع الأعداء . وهذا يريك أنها بالإسلام وبالجهاد في سبيل الله في أمن وأمان ولها ميزة وفضل على غيرها .

ثم انظر كيف جمع في الحديث بين الرجل والمرأة إشارة إلى أن المرأة المسلمة لها في مجتمعها كيان ، ولها فيه دور لا يقل عن دور الرجل في رفعة شأن الأمة ، فهي ليست كما صورتها الحضارة الغربية المادية المعاصرة ملهاة يتلهى بها في الأماكن العامة والخاصة ، وليست أداة إفساد في المجتمع بالتبرج والسفور والغناء الماجن والأفكار المستوردة المسمومة ، إنما هي بالإسلام الذى تلتزم به شقيقة الرجل في إسعاد البيت والمجتمع .

ولم ينس الصحابة رضوان الله عليهم مكانة مصر ، فأتى عليها من شاهدها منهم وعرف طبيعتها وطبيعة أهلها .

قال على رضى الله عنه وهو يعدد مآثر بعض البلدان : " والنجباء بمصر " . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : " قبط مصر أكرم الأعاجم كلها ، وأسمحهم يداً ، وأفضلهم عنصراً ، وأقربهم رحماً بالعرب عامة ، وبقريش خاصة . ومن أراد أن يذكر الفردوس ، أو ينظر إلى مثلها في الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها ، وتزهو ثمارها . " (١) .

وهذه الصفات جعلتهم أقرب الناس إلى الإسلام وأسرعهم في اعتناقه والذود عن حياضه ، وصدق رسول الله ﷺ الذى قال : « تجدون الناس معادن ،

(١) حسن المحاضرة ١/ ١٨ .

فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ..»<sup>(١)</sup> .

وقد أثبت الواقع العملي ذلك على مدى التاريخ منذ فتحها الصحابة بقيادة عمرو بن العاص رضوان الله تعالى عليهم . ففي الوقت الذي أحس فيه الأعداء بالضعف الذي أصاب العالم الإسلامي نظرا لتشرذمه شيئا وأحزابا وتشرذم دياره ، وجدوا الفرصة سانحة للانقضاض على أرضه واستئصال شأفة أتباعه ، والاستيلاء على الأماكن المقدسة وهدمها ، فبدأ زحفه الصليبي على فترات زمنية متقاربة في حملات عسكرية متعددة ، كان للعصر الأيوبي نصيب الأسد منها ، إذ ابتدأ الأيوبيون حكمهم بالحملة الصليبية الثانية التي منى الصليبيون فيها بهزيمة منكرة في موقعة حطين عام ( ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ) على يد القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي ، وانتهى بنهاية الحملة الصليبية السابعة التي لا تقل في أهميتها وخطورتها عن الحملة الصليبية الثانية . ولهذا سنحط رحالنا عندها ونفرد لها الحديث في الصفحات التالية من الفصل الأول في هذا الكتاب .



(١) مسلم بشرح النووي ٧٨/١٦ . كتاب الفصائل . باب خيار الناس .

## الفصل الأول

# حملة لويس

## "الحملة الصليبية السابعة"

تعد الحملة الصليبية السابعة من أخطر الحملات الصليبية التي تعرض لها العالم الإسلامي نظراً للآثار السنية التي نتجت عنها والتي سوف نتضح فيما بعد ، وحين الفراغ من الحديث عنها في هذا الفصل .

### تجريد الحملة بقيادة لويس :

دعا البابا "أوسنت الرابع" عام (١٢٤٥م) في المؤتمر الروحي الذي انعقد بمدينة "ليون" إلى تجريد حملة صليبية بغرض انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين، ووقع اختياره على ملك فرنسا القديس "لويس التاسع" البالغ من العمر آنذاك (٣٥) سنة ليكون القائد لهذه الحملة فسرَّ "لويس" لذلك ، وأعد عدته المكونة من ثمانين ألف جندي من نخيرة جنود فرنسا ، وفيهم أمراء كثيرون وأخو الملك وزوجته ، وأبحر في (١٨٠٠) سفينة متجهاً أولاً إلى قبرص ليملكها بها فترة الشتاء ، فرحب به ملكها حقداً على الإسلام وأهله .

وأمدّه بمال وعتاد ، وراسل "لويس" من هناك التتار الذين زحفوا من الجهة المقابلة "الشرقية" على ديار المسلمين ، لكن لم تنجح المراسلات في عقد تحالف بين الشيطانين وذلك من لطف الله بالمسلمين .

### الاتجاه إلى مصر :

ومن قبرص أبحر "لويس" بجيشه قاصداً مصر أولاً ، لعلمه أنها بوابة العالم

الإسلامي ، وقلبه النابض ، وعقله المدبر ، وذراعه القوى الطويل ، فلا سبيل إلى بلد إسلامي إلا بمصر أولاً ، فقصدها والحقدها بقلبه على أبطال المسلمين ودعاتهم الذين وصلوا في نهاية القرن الأول الهجري عن طريق الأندلس إلى فرنسا ذاتها ففتحوا معظمها واستولوا على مدينة "صانص" حتى كان بين الجيش الإسلامي وبين العاصمة "باريس" مائة ميل فقط .

ولم ينس "لويس" وجيشه موقعة "بلاط الشهداء" أو "توربواتيه" التي دارت رحاها في قلب فرنسا عام (١١٤هـ/٧٣٢م) ، فسقط القائد المسلم عبد الرحمن الغافقي شهيداً في المعركة ، وهُزم المسلمون لأول مرة على أيدي آباء لويس الأولين بقيادة "كارل مارتل" لايميزة في جيش مارتل ولكن للخلافات التي سادت في صف الجيش الإسلامي وانشغال الجنود بالغنائم ، فتوقف الزحف الإسلامي صوب أوروبا رغم بقاء الإسلام في فرنسا مدى قرنين من الزمان على ما صرح به "لويون"<sup>(١)</sup>.

ووصل إلى المياه المصرية في (٢١ صفر ٦٤٧هـ/٥ يونيو ١٢٤٩م) ، ونزل إلى البر في اليوم التالي ، واشتبك مع الحامية المصرية التي فوجئت بوصوليه ، فلم تصمد أمام القوة الغازية وفرت في جنح الظلام نحو الجنوب . وانتهزها "لويس" فرصة فدخل بقواته دمياط ، وأعمل فيها النهب والسلب ، واغتصبوا النساء وقتلوا الشيوخ والأطفال ، وحولوا جامعها إلى كنيسة أطلقوا عليها اسم "نوتردام" أي مريم العذراء وعين لويس لها بطرقاً كاثوليكية .

وبعد أن استقر بالمدينة أرسل كتاباً إلى الملك الصالح "نجم الدين أيوب" الذي

(١) راجع في معركة بلاط الشهداء مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام . محمد عبد الله عتمان ص ١٤٣-١٥١ . الخالجي . الرابعة . ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م ، دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر . لنفس المؤلف ١/٣٨-٦١ . مكتبة الخالجي . الرابعة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، حضارة العرب . غوستاف لويسون . ص ٢٨٣-٣٢٢ ، ص ٣٣٨-٣٦٨ . ترجمة عادل زعيتير . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥م .



كان بالشام يهدده فيه بالتسليم لعدم جدوى المقاومة ، وأنه سيسوق مسلمي الأندلس سوق البقر وسينضمون إليه ، وسيقضى عليهم إلى آخر ما في الكتاب من غطرسة وتهديد ، وهو نوع من حرب الأعصاب التي سلكها المغول في زحفهم على ديار الإسلام كي يفتروا في أعضاد المسلمين .

فكان جواب الملك الصالح الذي وُجِمَ لما أصاب الحامية وحزن حزناً شديداً لما حدث في دمياط : عدم الاكتراث بتهديدات "لويس" ، وإنذاره وجنوده بسوء المصير .

وراسل الملك "فريدريك" ملك ألمانيا مستغلاً العلاقة الحسنة التي كانت بينهما والخلاف الذي كان بينه وبين لويس فحصل منه على دعم مادي .

ثم خَفَّ سريعاً محمولا - في محفته لمرضه - من الشام إلى مصر ماراً بالصالحية ثم بفاقوس ، حتى وصل إلى المنصورة <sup>(١)</sup> التي بناها أبوه الملك الكامل من قبل عام (٦١٥هـ / ١٢١٨م) أثناء الحملة الصليبية الخامسة ، فعسكر على البحر الصغير عند أشموم "طناح" <sup>(٢)</sup> في قواته ، حتى يكون في مقابلة قوات الصليبيين حين قدومهم من دمياط . كما أقام معسكراً قرب القصر السلطاني على النيل في المكان الذي أطلق عليه شجرة الدر <sup>(٣)</sup> .

وكان يجواره في هذا الظرف العصيب زوجته شجرة الدر "أم خليل" التي تحولت من جارية عادية إلى زوجة حظية ، تنصح له وتساعد في ما يحتاج إليه وتبث فيه وفي قواده روح القوة والإقدام ، فكان لهذا أثره الطيب في سير المعركة ، فانظر ما فعله الإسلام بهذه المرأة ، حيث حولها من مخلوق يتمتع به إلى زوجة ذات عقل رشيد ورأى شديد وتدير محكم لصالح العباد والبلاد ، لقد كانت مع

(١) سميت بذلك لانتصار المسلمين على الصليبيين بقيادة ملك المجر في هذه الحملة .

(٢) هي بين مدينتي ذكرنس والمنصورة .

(٣) هي مكان مركز أمراض الكلى الآن .

زوجها في رباط كما أخبر النبي ﷺ في الحديث المذكور آنفاً .

### تحرك لويس نحو القاهرة:

أخذ لويس في التحرك جنوباً نحو القاهرة "العاصمة" ، ولم يتركه المصريون يسهناً بما استولى عليه ، بل كانت تقوم معارك متفرقة بين الطرفين ، وكانت الحرب فيها سجالاً بينهما .

في هذه الأثناء أخذ المرض يشتد على الملك الصالح ، فحُمِلَ إلى قلعة المنصورة حيث مكان شجرة الدر لتمريره ، ولقى ربه في شهر شعبان عام (٦٤٧هـ / ٣ نوفمبر ١٢٤٩م) بعد يومين من مسير لويس عن أربع وأربعين سنة .

كانت وفاة الملك الصالح أيوب كفيلة بهزيمة المسلمين في هذه الظروف العصيبة ، غير أن شجرة الدر بحكمتها بادرت بامتلاك زمام الموقف ، فأخفت موت السلطان ، وسيرت الأمور مع باقي رجال الدولة والقواد طوال أربعة أشهر - على ما اختاره ابن تغرى بردى - حتى كان السباط<sup>(١)</sup> السلطاني يمد في مواعيده وكأن شيئاً لم يحدث ، وكانت الأوامر والمنشورات تخرج ممهورة بخط السلطان - وهي بخطها أو بخط الخادم - وحُمِلَ جثمانه سراً إلى الروضة بالقاهرة ، ثم نُقِلَ إلى قبره بجوار المدارس الصالحية قرب خان الخليلي . هذا في الوقت الذي كانت شجرة الدر تعتذر فيه إلى كل من يريد مقابلة السلطان بأنه مريض لا يستطيع مقابلتهم . وأرسلت "أقطاي" لاستدعاء "توران شاه" ابن السلطان ونائبه على دمشق لإدارة أمور البلاد بعد أبيه .

ماذا يقول دعاة تحرير المرأة عن تصرف شجرة الدر العظيم هذا ، وهي بالطبع لم تتصرفه إلا باسم الإسلام ولصالحه ولصالح المسلمين<sup>(٢)</sup> ؟

(١) أي المائدة .

(٢) لمعرفة المزيد عن شجرة الدر ، ومكائنها عند زوجها "الصالح نجم الدين أيوب" ، وحسن تصرفها حين مات ، واستقدامها "توران شاه" ، والوحشة التي دبت بينهما ، وقتله بتدبيرها ، وتوليها أمر مصر ، { يتبع }

تحركت جيوش الصليبيين جنوباً عن طريق الدلتا المعروفة بكثرة ترعها وقواتها فأعاق ذلك تقدمهم ، حيث حصروا في سيرهم من الشمال الشرقى ببحيرة المتزلة ، ومن الغرب بدمياط ، ومن الجنوب بالبحر الصغير "بحر أشموم" فاستغل الأمير فخر الدين الموقف فهاجمهم بين فارسكور وشرمساح بقوات من الخيالة الفرسان على النيل حيث كانت تسير سفنهم محملة بالإمدادات ، فعرقل ذلك تحركهم وأوقع عدداً منهم في الأسر .

غير أن "الويس" أخذ يقرب شيئاً فشيئاً من المنصورة ، حتى وصلت طلائعهم إليها في أوائل رمضان (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) ، وعسكر شرق المدينة ، فجمع فخر الدين قواته وعسكر في مواجهتهم "بجديلة" ، وصارت القوات لا يفصل بينهما إلا البحر الصغير ، ووقعت بينهما معارك لمدة ستة أسابيع كان التفوق فيها للمسلمين بسبب القذائف الملتهبة التي استأثر المسلمون بسرّها ، فكانت تحدث في صفوف الصليبيين الذعر وتفتك بهم ، كما منعهم من إقامة جسر على البحر الصغير للعبور عليه إلى المسلمين في الجهة الأخرى من الشاطئ ، وظل الأمر هكذا حتى حدثت المعركة الفاصلة داخل المدينة التي كانت مفتاح النصر يوم (٨ فبراير ١٢٥٠م/٤ ذي القعدة ٦٤٨هـ) .

---

{تابع} وما يجرى على يديها من الخيرات لأهل مصر ، واعتراض الخليفة العاسي ببغداد "المستنصر بالله أسبو جعفر" وتذكره إياها بحديث الرسول ﷺ الصحيح : «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» . [ البهارى على الفصح ٧/٧٣٢ ك المغازى ب كتاب النبى ﷺ إلى كسرى وقصر ] ونزولها عن كرسى الحكم بمجرد وصول الرسالة احتراماً لحديث رسول الله ﷺ وتقديراً لمكانة الخليفة على ضعفه بعد نحو ثلاثة أشهر من توليها ، وتولية "عز الدين أيبك" الأمر بعد تزوجه منها تقديراً لها ، وحصول الوحشة بينهما ، وقتل رجلها زياد ، ثم قتلها ، وتسجيل الملاحظات على ذلك ، راجع أسس نظام الحكم الإسلامى وعصائمه للمؤلف ص ١٣٠-١٣٢ .

## معركة المنصورة :

وصل أحد النصارى إلى معسكر "لويس" ، وعرض عليه أن يكشف له عن مكان مخاضة لعبور "البحر الصغير" مقابل مبلغ من المال ، فأعطاه "لويس" ما طلب ، فدلّهم على مخاضة عند بلدة سلامون القماش التى كان بها عدد من النصارى ، فاجتازها "لويس" على رأس قوة من الجيش بعد عناء لشدة مقاومة القوة الإسلامية .

ثم تقدم "روبرت" أخو لويس على رأس كتيبة كبيرة من الفرسان الأقوياء في ظلمة الفجر لمهاجمة معسكر المسلمين في جديلة التى كانت تبعد عن معسكرهم نحو ميلين ، وفاجئوا المسلمين بالهجوم ، فأحدثوا في صفوفهم ذعراً كبيراً ، وفتكوا بأعداد غفيرة منهم لم يتمكنوا من الوصول إلى أسلحتهم .. وما إن سمع القائد فخر الدين الجلبة حتى وثب على صهوة جواده ، وقذف بنفسه في المعركة دون أن يلبس لأمة الحرب ، فأحاطت به طائفة من الفرسان الصليبيين فمزقت جسده بطعنات رماحها وضربات سيوفها وفر بعض من لم يتمكن من سلاحه من المسلمين إلى معسكر المنصورة .

واغتر "روبرت" بما حدث للقوة المسلمة ، وقاده هذا الغرور إلى حتفه هو ومن معه ، فقد تبع الفارين إلى المدينة ، وأراد الوصول إلى قصر السلطان ، غير أنه وقع بمجموعته في الكمين الذى نصبه لهم ركن الدين "الظاهر بيبرس" الذى تسولى القيادة مكان فخر الدين ، فقد أمر القائد الأهالى بدخول بيوتهم والاختفاء بها إلى حين صدور الأوامر إليهم ، وفرّغ الشوارع من الحركة فيها . وما إن انتشر الفرنسيون في الشوارع والأزقة حتى صدرت الأوامر سريعاً للجند والأهالى ، فانقضوا عليهم انقضاضة رجل واحد ، وأظهروا بطولات نادرة في المقاومة ، فصارت الشوارع والأزقة والبيوت قبوراً لروبرت وجنوده ، فقد أبيدوا عن آخرهم

- على رواية - وقتل معظمهم على - رواية أخرى - وكان يوم (٤ ذى القعدة ٦٤٨هـ / ٨ فبراير ١٢٥٠م) يوماً مشهوداً في حياة المصريين بعامه وحياسة أبناء المنصورة بخاصة ، دخلت به في التاريخ من أوسع أبوابه ، وكان بحق مفتاح النصر للمعركة الكبرى .

وأسقط في يد "لويس" بما حدث لكتيبة أخيه ، رغم استغلاله صخب المعركة ونجاحه في إقامة جسر على البحر أوصله إلى ( جديلة ) ليكون وجهاً لوجه مع قوات المسلمين دون حائل طبيعي .. غير أن المسلمين بدعوا يشنون عليهم غارات متتابعة ، منها الهجوم الذي تم بعد معركة المنصورة بثلاثة أيام ، واستطاعوا به كسر الجناح الأيسر للأعداء وتطويق الجناح الأيمن حتى كاد قائده أن يقتل ، ولم ينقذه إلا النساء والطباخون وخدم المعسكر .

وظل "لويس" في المعسكر شهرين ينتظر فرصة للاتقضاض على المسلمين فلم يجد .

### **تورانشاه واشتعال نيران المعركة :**

وصل "تورانشاه" من الشام ، وتسلم مقاليد الأمور مكان أبيه ، وعندئذ أعلنت شجرة الدر موت السلطان الصالح وتولّى ابنه "تورانشاه" .

وكان ذلك إيذاناً بتصعيد الصراع المسلح وتقوية روح الجيش المعنوية .. واستعمل السلطان الحديد وسائل جديدة في الهجوم ، فقد أمر بصنع أسطول من السفن الخفيفة وحملها على ظهور الجمال إلى الفروع السفلى من النيل ، مما كان لذلك أثره في تقويض أسطول الفرنج ، إذ استولى المسلمون على ( ٨٠ ) سفينة بما تحمل ، كما استولوا على قافلة ضمت ( ٣٢ ) سفينة بعد هجوم شنوه عليهم .

وأبدى المسلمون ضروباً من الشجاعة والاستبسال في جهاد الأعداء ، وحارب العلماء جنباً لجنب مع الأهالي والجنود ، بل إنهم كانوا يجوار القواد

يديرون رحي المعركة مما كان لذلك أثره الطيب في تقوية عزيمّة الأمة وثقتها في قادتها وتأييد الله تعالى لهم حتى حدثت في المعركة الخوارق وذلك فضل الله يعد به جنده المخلصين له .

يحكى السيوطي في تاريخه (٣٥/٢) أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام - وكان يلقب بسلطان العلماء - كان في معسكر المسلمين ، وكانت الغلبة للفرنج في أول الأمر ، وقويت الريح على المسلمين ، فقال الشيخ عز الدين بأعلى صوته مشسماً بيده إلى الريح : يا ريح خذيهم ، عدة مرات ، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها ، وكان النصر ، وغرق أكثر الفرنج ، وصرخ من المسلمين صارخ : الحمد لله الذي أرانا في أمة محمد ﷺ رجلاً سخر له الريح .

إن هذا يرينا مكانة العلماء العاملين عند الله تعالى وأثرهم في استدرار رحمة الله تعالى ونصره للأمة وإعلاء شأنها ، والريح آية ظاهرة من آيات الله تعالى يؤيد بها جنده المؤمنين في الأحزاب كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ <sup>(١)</sup> . شاهد ذلك الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان نفسه حين بعثه الرسول ﷺ في مهمة استخبارية داخل معسكر الأعداء حتى قال : ”ورأيت الريح وجنود الله تعمل في القوم عملها.“ .

ومن صور التلاحم بين الشعب والجنود وضروب الحيل التي تفتقت عنها الأذهان دفاعاً عن العقيدة والأرض ما رواه المقرئ (السلوك ٣٧/١) من أن شخصاً أخذ بطيخة مفرغة ، أدخل فيها رأسه ، وغطس في الماء إلى قرب من الفرنج ، فظنوه بطيخة ، فما هو إلا أن نزل أحدهم في الماء ليتناولها إذ اختطفه المسلم ، وعام به حتى قدم به إلى المسلمين . إلى غير ذلك من صور الجهاد

(١) الأحزاب آية (٩) .

والاستبسال التي تبين أن الشعوب حين تقاد باسم الإسلام ، وحين يكون بينها وبين رعاتها حب وولام يكون البذل وتظهر التضحية بأجل صورها ويكون النصر والتقدم .

### انهزام الصليبيين وأسر لويس :

أدرك "لويس" أنه أمام موقف صعب ، وعليه أن يدخل في مفاوضات لاستنقاذ ما بقي من الجنود الذين أخذ المسلمون يتخطفونهم برأ وبجراً ، وساعد على صعوبته قشو الجوع والمرض في الجيش .

فأرسل إلى "توران شاه" يعرض أخذ بيت المقدس من المسلمين في مقابل الجلاء عن دمياط ، فقبل العرض بالرفض التام ، فقرر الانسحاب والعودة إلى دمياط مرة ثانية ، فانتهازها المسلمون فرصة ، واشتدوا في مطاردتهم وقتلهم وأسروهم ، ووقعت بين الطرفين معارك كبيرة قرب فارسكور وشرمساح وميت الخولي عبد الله التي أسر بها "لويس" مع من كانوا معه ، واستسلم الفرنج للمسلمين ، واقتيد ملكهم بأمرائه وقادته إلى المنصورة حيث تولى الطواشي "صبيح" حراسته بدار ابن لقمان .

وكان من الشروط التي أخذت على "لويس" إطلاق سراحه وسراح قواده وجنوده في مقابل قدر مالي كبير يدفعونه للمسلمين ، وتسليم دمياط للمسلمين بدون قيد أو شرط ، وألا يقوم "لويس" بحرب المسلمين مرة أخرى<sup>(١)</sup> .

وتسلم المسلمون دمياط من أيدي الفرنج في (٣ صفر ٦٤٨ هـ / ٦ مايو ١٢٥٠ م) ، وغادرها "لويس" بجنده يوم ( ٨ مايو ) متجهين إلى عكا ، يجرون وراءهم أذيال الهزيمة والخزي والعار ، بعد أن مكثوا بها أحد عشر شهراً ، وقد فقدوا من

(١) رغم التزم لويس بهذه الشروط أمام المسلمين إلا أنه نقض عهده فقام بحملة صليبية ثامنة عام (١٢٥٤ م) ، لكن الله أهلكه عند الشواطئ التونسية مع معظم من كانوا معه ودفن بمدينة "قرطاجنة" وعاد الباقيون إلى معسكرهم مرة أخرى .

خيرة جنودهم أعدادا غفيرة ، قدرها بعض المؤرخين بثلاثين ألفا ، وبعضهم قدرها بخمسين ألفا ، وذكر البعض أنها مائة ألف<sup>(١)</sup> . وصدق الله إذ يقول :  
﴿ والله العزة ولمسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾<sup>(٢)</sup> .

لقد ضم انتصار أبناء مصر - قيادة وجنوداً وشعباً - على الصليبيين المعتدين - جديداً إلى سجلها الحافل بالدفاع عن الإسلام الذي دخلت التاريخ من أوسع أبوابه به ، كما أمدتنا وقائع الحملة بدروسها التي لا تنسى .

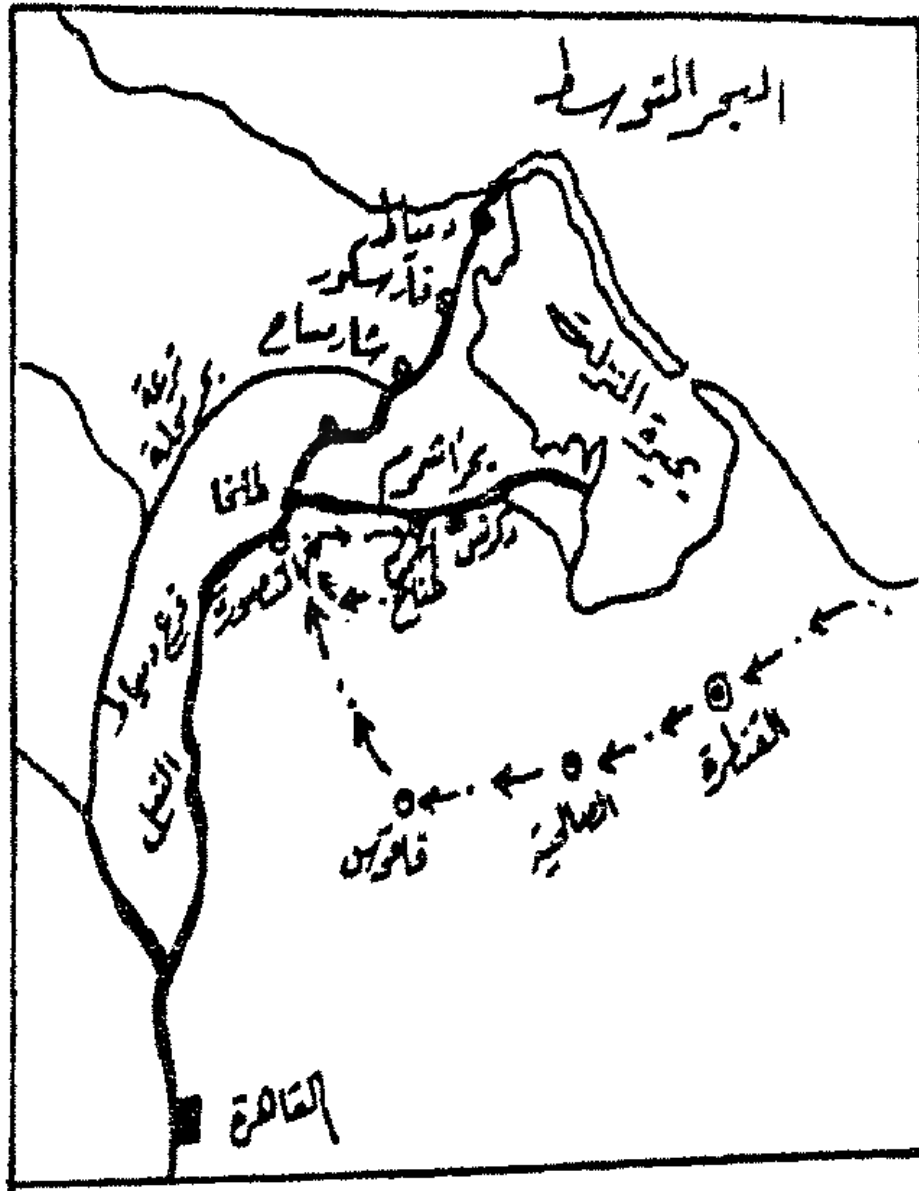
(١) راجع في حملة لويس ما يلي : البداية والنهاية لابن كثير ١٧٧/١٣-١٧٨ دار الفكر العربي . بدون ، الخطط للمقرئى ٨٩/٣-٩٠ . دار التحرير . بدون ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى الأتابكي ٣٦٢/٦-٣٧٤ . دار الكتب . بدون . حسن المحاضرة للسيوطي ١١/١-١٩ ، ٣٧-٣٥/٢ ، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار . عبد الرحمن الجبرتي ٢٨/١ . دار الجيل . بيروت . بدون . تاريخ الدولة العلية العثمانية . محمد فريد بك ص ٣٠-٣١ . دار الجيل . بيروت ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، موسوعة تاريخ مصر . أحمد حسين ٦٦٤/٢-٦٦٧ . دار الشعب . بدون ، فن الحرب الإسلامي أيام الحروب الصليبية . بسام العسلي ٢١٣/٤-٢٢٦ . دار الفكر . بيروت . الأولى ١٣٠٨هـ/١٩٨٨م ، الغزو الصليبي والعالم الإسلامي . د . علي عبد الحليم محمود ص ١٩٠-١٩٨ . دار التوزيع والنشر الإسلامية . الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ . القصبة الفلسطينية د . جمال عبد الهادي وزوجته ٣٢/١-١٣٥ . دار الوفاء . الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، التاريخ الإسلامي آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية . د . إبراهيم العدوي ص ٣٦٣-٣٧٧ . مكتبة الأجلو المصرية . بدون ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية . د . أحمد شلى ٦٠٢/٥-٦٦٥ . مكتبة النهضة المصرية . السادسة ١٩٨٣م ، أسس نظام الحكم الإسلامي وخصائصه . د . فرج محمد الرصيف ص ١٣٠-١٣٣ . إياك كوي ستر بالنصورة . الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، أثر الحروب الصليبية على الفكر الفكري الحديث . محمد أسعد . الأولى ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، مصر في عصر الأيوبيين . د . السيد الباز العريفي ص ١٣٩-١٤٩ . مطبعة الكيسلاني الصغير . بدون ، معالم التاريخ الإسلامي المعاصر . أنور الجندي ص ٥٣ . دار الاعتصام . بدون ، المنصورة قاهرة الصليبيين . نقابة الأطباء . الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

(٢) المنافقون آية (٨) .





## خط سير الحملة والقوات الصليبية



خط سير الجيش الإسلامي بقيادة الملك الصالح أيوب ، حيث عسكر أو  
عند أشمون طنخ ، ثم بعد سقوط دمياط عاد ليعسكر بالمنصورة

## دروس يجب ألا تنسى :

أمدتنا الحملة الصليبية السابعة وانتصار المسلمين فيها بالدروس التي يجب النظر فيها ووضعها موضع الاعتبار خاصة وأنا نعيش اليوم صراعا متعدد الأشكال والجبهات ، وقد قالوا : "ما أشبه الليلة بالبارحة" .

فما أشبه ما يتعرض له المسلمون اليوم من كيد بما تعرض له أسلافهم بالأمس ، غير أن الأسلاف سرعان ما كانوا يفيقون ويتوحدون وعلى الإسلام يجتمعون ، وبه يواجهون الأعداء فينتهي الأمر بنصر الله لهم ، ومن الدروس التي تمدنا بها وقائع الحملة الصليبية السابعة ما يلي :

١- أن أعداء الإسلام نهazon للفرص ، وهم يجيدون الصيد في الماء العكر ، فقد انتهزوا فرصة الخلاف الذي حدث بين الملك الصالح ومنافسيه مسن البيت الأيوبي في الشام ، فأسرعوا بمحلتهم على العالم الإسلامي بادئين بمصر ، غير أن البيت سرعان ما أفاق وعاد للوحدة والاجتماع على كلمة سواء ، جمعت الشام ومصر معا ، فكان من ثمرة ذلك القوة والتماسك والثبات في مواجهة الحقنة حتى تم النصر ، واليوم إذ نواجه نفس التحدي فلا بد من الوحدة ولم الشمل والاجتماع على كلمة سواء هي هذا الدين حتى نال ما ناله أسلافنا من العز والتمكين والنصر، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾<sup>(١)</sup> ويقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾<sup>(٢)</sup> .

٢- أن قيادة الأمة التي يزع الله بها ما لا يزع بالقرآن يجب أن تربي على

(١) المؤمن آية (٥٢) .

(٢) الأنفال آية (٤٥-٤٦) .

العقيدة الصحيحة حتى تكون متعلقة بالله تعلقا يجعلها أهلا لتزول رحماته على الأمة ونصره لها ، ويكون ولاؤها لله لا لأحد سواه ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ <sup>(١)</sup> ويقول : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ <sup>(٢)</sup> .

٣- إحياء فريضة الجهاد في سبيل الله تعالى ، وتربية الأمة عليه ، فهو الوسيلة القوية الوحيدة القادرة على إجهاض مخططات أعداء الإسلام ، وهل رفع رأس مصر بل العالم الإسلامى إلا الجهاد في سبيل الله في كل المحاولات التي قام بها الأعداء ضدنا ١٩ .. وهل مرغت كرامة المسلمين في العصر الحديث إلا يوم ابتعدوا عن التربية على الجهاد في سبيل الله ١٩ .. وصدق أبو بكر رضى الله عنه الذى قال : ” وما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل “ .

فيجب تربية الأمة على هذا السياج العظيم الذى يحمى الأمة وأرضها ودينها وأخلاقها وأفكارها ، ويبوئها منازل السعداء في الدنيا والآخرة لا سيما ونحن نعيش صراعا مع الصهاينة المغتصبين المنتجحين ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ <sup>(٣)</sup> .

(١) محمد آية (٧) .

(٢) الحج آية (٤١) .

(٣) الصف آيات (١٠-١٣) .

٤- إفساح المجال أمام العلماء من الدعاة العاملين الذين ينشرون المفاهيم الصحيحة في الأمة ، ويعملون على نهضتها ورفيها ، لأنهم خط الدفاع الأول ضد الجهل والتطرف والتعصب ، وبهم يكون الأمن والأمان في ربوع البلاد ، وهل غاب عنا خير العز بن عبد السلام الذي مر موقفه منذ قليل ؟ .

إنه مع رسالته العلمية التربوية ، قد أفسح له المجال ليكون مشاركا الأمة في محتتها ، وكان معهم في ساحة المعركة برا وبحرا ، وأفسح له المجال للدفاع عن حقوق الأمة حين يعتدى عليها حاكم أو أمير ، وكانت له في هذا المجال مواقف التي تحسب له وتحسب للحاكمين آنذاك رغم خروج بعضهم عن جادة الصواب ، فقد أنكر على الصالح إسماعيل صاحب دمشق استعانتة بالفرنج ضد أخيه ، وإعطائهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف .. وترك ما كان متعارفا عليه آنذاك من ترك الدعاء له في الخطبة ، والإنكار علنا لما فعل ... فلما غضب السلطان منه خرج قاصدا الديار المصرية عام (٦٣٩هـ) ، فأرسل السلطان إليه رسولا على عجل يتلطف به في العود إلى دمشق ، فاجتمع به ولاينه .. وقال له : ما نريد منك شيئا إلا أن تنكسر للسلطان (تنحنى له) ، وتقبل يده لا غير .. فقال الشيخ له : يا مسكين ، ما أَرْضاه يقبل يدي فضلا عن أن أقبل يده ! يا قوم أنتم في واد وأنا في واد ! والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاكم ... فلما وصل إلى مقرر تلقاه الصالح نجم الدين أيوب وأكرمه ، وولاه قضاء مصر وعطابته ..<sup>(١)</sup>

فماذا كان من الشيخ هل داهن في مقابل هذا التكريم على حساب دينه ورسالته ؟ .. لقد ظل على مبدئه الذي كان عليه بالشام لم يتغير ، إذ المبادئ لا تتجزأ ولا تتغير وإن تغير الزمان والمكان .

ولهذا كانت للشيخ مواقفه الجريئة مع السلطان والأمراء ، وإليك طرفا منها:

(١) حسن المحاضرة ١٦١/٢-١٦٢ .

\* كان الصالح أيوب سلطانا شديد البأس لا يجسر أحد أن يخاطبه إلا بحيا ولا يتكلم أحد بحضوره ابتداء ، وقد جمع من المماليك الترك ما لم يجتمع مثله لغيره مسن أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره منهم ، وهم معروفون بالخشونة والبأس والفظاظة ، والاستهانة بكل أمر ، فلما كان يوم العيد صعد إليه الشيخ وهو يعرض الجند ويظهر ملكه وسطوته ، والأمراء يقبلون الأرض بين يديه ، فتأداه الشيخ بأعلى صوته ليسمع هذا المملأ العظيم : يا أيوب .. ثم أمره بإبطال منكر انتهى إلى عمله في حانة تباع فيها الخمر ، فأصدر السلطان أمره فورا بإبطال الحانة واعتذر إليه ..

سأله "الباجي" بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر فقال: يا سيدى كيف كانت الحال ؟ قال : يا بنى رأيته في تلك العظمة فخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره ، فكان ما بدأت به - فانظر كيف كانوا ميزان الاعتدال للرعاة - .. قال : أما خفته ؟ قال : يا بنى استحضرت هيئة الله تعالى فكان السلطان أمامى كالقط<sup>(١)</sup> ..

\* كما تصدى لبيع أمراء الدولة من الأتراك - لما زادت سطوتهم - إذ لم يثبت عنده أنسهم أحرار ، فحكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين ، وأبطل بيعهم وشراءهم ونكاحهم ، فاستجابت الأمة للعالم الداعية وتعطلت بذلك مصالحهم ، وكان من حملتهم نائب السلطنة ، فاستشار غضبا ، واجتمعوا بالشيخ كى يتراجع فثبت على موقفه ، وأعلموا السلطان بذلك فبعث إليه فلم يرجع ، وبعث إليه النائب فلم يرجع ، فانزعج النائب لذلك ، فقال : كيف ينادى علينا هذا الشيخ ، وييمنا ونحن ملوك الأرض ! والله لأضربنه بسيفى هذا ، فركب بنفسه في جماعته وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده ، فطرق الباب ، فخرج

(١) الغزو النفاقي يمتد في فراغنا . الشيخ محمد الغزالي . ص ١٧٤ . دار الصحوة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧ م .

ولد الشيخ ، ثم عاد وشرح لأبيه ما رأى ، فما اكرث لذلك ، وقال : يا ولدى أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله ، ثم خرج . فحين وقع بصره على النائب بيست يد النائب ، وسقط السيف منها ، وأرعدت مفاصله ، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له ، وقال : يا سيدى إيش تعمل ؟ قال : أنادى عليكم وأبيعكم ، قال : فقيم تصرف ثمتنا ؟ قال : في مصالح المسلمين ، قال : من يقبضه ؟ قال : أنا . فتم ما أراد ، ونادى على الأمراء واحدا واحدا ، وغالى في ثمنهم ولم يبيعهم إلا بالثمن الرافى ، وقبضه وصرفه في وجوه الخير <sup>(١)</sup> ..

\* وموقفه في عهد قطر أثناء الاستعداد لحرب التتار في عين جالوت عام (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) من إنفاق الأمراء أولا ما بأيديهم من الأموال والضيعات والمتاع ، ثم التوجه بعد ذلك إلى الشعب .. وتنفيذ رأيه معروف مشهور .. وهكذا نجد أن علماء الأمة العاملين كانت لهم مكانتهم في قلوب الأمة ، وقدر المسؤولون لهم ذلك فاحترموهم وجعلوا لهم الصدارة في الناس وأفسحوا لهم المجال في التوجيه والإرشاد .

وأكثر من هذا وقفوا أمام جيروت المتفرغين منهم لتحويلهم من طغيانهم على الأمة إلى صفتهم الأولى التي لازمتهم زمنا والتي تناسوها كما فعل العز ، وما تجاوز الشريعة فيهم بل طبقها عليهم ، وألزم السلطان بذلك فالتزم . فأين هؤلاء الأمراء والعلماء من حكام وعلماء اليوم ؟ .

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله : " نرى : أنشهد الجماهير المهیضة مزاردا آخر من هذا النوع الفريد ، يعرض فيه رؤساء للبيع ؟ . لا ، لقد انتهى بيع الرقيق ، نريد ساحة أخرى يتعري فيها الطغاة من أسباب البأس ، ويعاملون فيها بما قدموا

(١) حسن المحاصرة ١٦٢/٢ - ١٦٣ ، وحى القلم . مصطفى صادق الرافعي ٥٦/٣ - ٥٨ . دار الكتاب العربي .

سَيِّئاً بَسَنَ ، وَعَيْنَا بِعَيْنٍ ، وَنَفْسَا بِنَفْسٍ .<sup>(١)</sup> .

### المخطط الرهيب :

وقبل الانتهاء من الحديث عن هذه الحملة ينبغي الإشارة إلى المخطط الخطير الذى وضعه لويس لبنى مِلْتِه وجلَدَتِه ، ذلك المخطط الذى بقيت آثاره حتى الآن رغم مرور عدة قرون على زمانها ، عُدَّت به الحملة بداية لمرحلة جديدة تعامل بها الغرب الصليبي مع المسلمين .

فقد ذكر المؤرخ الفرنسى "جوانفيل" الذى رافق "لويس" فى حملته السلبيعة : أن خلوة لويس فى معتقله بالمنصورة أتاحت له فرصة هادئة كى يفكر بعمق فى السياسة التى كان أجدر بالغرب أن يتبعها إزاء المسلمين ، ورسم لهم مخططاً على النحو التالى :

**أولاً :** وجوب اتحاد الغرب والانضواء تحت زعامة واحدة ، وتناسى خلافاته للتفرغ للعدو المشترك : الإسلام وأهله .

**ثانياً :** استخدام سلاح جديد يسير جنباً لجنب مع السلاح العسكرى ، هو السلاح السلمى الذى يستهدف نفس الغرض ، وذلك يتحقق بالهدس بين العرب بعضهم بعضاً ، وإثارة الخلافات فى الأوساط الإسلامية ، والعمل على بقاء نارها مستعرة بين الأمراء المسلمين . ثم الإمعان فى تأييد بعضهم ضد البعض ، وتأييد ذلك بمعاهدات يمكن نقضها عند الاقتضاء .. واستغلال الخلافات والمنافسات لمنافع سياسية واقتصادية للغرب ..

**ثالثاً :** تجنيد المبشرين الغربيين فى معركة سلمية (الكتب والمحلات والجرائد ووسائل الإعلام والمدارس والتطبيب والخدمات الاجتماعية) لمحاربة تعاليم الإسلام.

(١) الغزو الثقافى يمتد فى لراغنا ص ١٨١ .



وأخيراً : العمل على استخدام بشارى الشرق لتنفيذ سياسة الغرب .  
 ثانياً ، العمل على إنشاء قاعدة للغرب في قلب الشرق العربى يتخذها  
 الغرب نقطة ارتكاز له ومركزاً لقواته الحربية ولدعوته السياسية والدينية ، ومنها  
 يمكن حصار الإسلام والثوب عليه كلما أتاحت الفرصة لمهاجمته .  
 وقد عين لويس لإنشاء هذه القاعدة الأراضى الممتدة على ساحل البحر الأبيض  
 من غزة حتى الإسكندرية وتشمل فلسطين والأردن والأماكن المقدسة ثم لبنان<sup>(١)</sup> .  
 وهذا ما نرى شواهد اليوم على أرض الواقع .



هذه الحملة الصليبية السابعة بأحداثها ودروسها وبما انتهت إليه من مخطط  
 عسكرى وفكرى عُده به لويس التاسع رائد التنظير للحملة الصليبية التى تعرض  
 لها العالم الإسلامى فى العصر الحديث ، ولاسيما حملة نسابليون على ديارنا  
 الإسلامية ، فمادا عن هذه الحملة ، وما الأضرار التى نجمت عنها على حياتنا نحن  
 المسلمين فى كل الميادين ؟ .

ذلك ما سيعالجه الفصل القادم بمشيئة الله تعالى .



<sup>(١)</sup> معركة المصحف فى العالم الإسلامى . الشيخ محمد الغزالي ص ٢٠٤-٢٠٧ يتصرف . دار الكتب الحديثة .  
 الثانية ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م ، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية المعاصرة . د. مسفر  
 الحوالى . ص ٥٢٨-٥٣٧ . مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى بالسعودية . بدون .



## الفصل الثاني

### نابليون وتنفيذ المخطط

مرت قرونٌ خمسة على حملة "لويس التاسع" ، ثم جاء خلفه "نابليون بونابرت" في القرن الثالث عشر الهجرى ( القرن التاسع عشر الميلادى ) بحملته على ديار المسلمين لتنفيذ المخطط الصليبي الآنف الذكر .

#### تجريد الحملة :

تحرك "نابليون بونابرت" من فرنسا قاصداً مصر قلب العالم الإسلامى النابض على رأس ( ٥٠ ) ألف جندي - حسب رواية هيرولد<sup>(١)</sup> - من عتاة المحاربين الفرنسيين ، وهم يتذكرون فيما بينهم حروب "كارل مارتل" و"لويس التاسع" ضد المسلمين ، فوصلت الحملة إلى شواطئ الإسكندرية بدلاً من دمياط تفادياً للمخطط العسكرى الذى وقع فيه "لويس" من قبل ، ودخلها بجيشه في ( ١٨ من المحرم ١٢١٣ هـ / ٢ يوليو ١٧٩٨ م ) بعد مقاومة عنيفة من أهلها وأخضعها بسالحديد والنار وعين عليها حاكماً فرنسياً .

ثم تحرك بقواته إلى القاهرة وبقية الأقاليم في أنحاء مصر في الوجهين القبلى والبحرى واستولى عليها كلها وسط مقاومة شديدة من الجند والأهالى والعلماء<sup>(٢)</sup> ،

(١) بونابرت في مصر . ص ٤٠١ . ترجمة اندراوس . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ م .

(٢) راجع تفاصيل المعارك والاحتلال في عجائب الآثار في التراجم والأخبار للحجرتى ١٨٠/٢ وما بعدها ، تاريخ الحركة القومية بمرأيه : الأول والثاني للسورخ عبد الرحمن الرافعى . دار المعارف بمصر ، تأشير للنهضة في العالم الإسلامى . د . محمد ضياء الدين الرئيس . ص ٥١ وما بعدها . دار الأنصار بالقاهرة . الثالثة ، الإسلام عبر التاريخ انتصارات وانتكاسات . عبد الغنى سعيد . ص ١٨٤ . القاهرة للثقافة العربية . بدون ، { يتبع }

بعد أن أحدث ما أحدث من مصائب لم يُصَب العالم الإسلامى بمثلها إلا ما كان على أيدي أسلافه من الصليبيين والتتار .

يقول الجيرتى عن السنة التى احتل فيها الفرنسيون مصر مشيراً إلى شروره السقى عمت البلاد : " وهى أول سنئ الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واحتلال الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتسابع الأهموال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب . وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون. " (١) .

وهذا الكلام من الجيرتى يحمل فى طياته معانى كثيرة وتفصيلات متنوعة للوجه الحقيقى البشع للحملة الفرنسية التى لعب الاستشراق دوراً كبيراً فى تجريدتها لاحتلال ديارنا والقضاء على هويتنا الإسلامية .

### **الدور الاستشراقى فى تجريد الحملة :**

ظهرت حملات الاستشراق على الساحة العالمية كى تؤدي دورها المرسوم لها جنباً لجنب مع الحملات العسكرية تنفيذاً للمخطط الذى نسج خيوطه القديس "لويس" المُنظَر الأول للطريقة الصليبية الجديدة فى التعامل مع المسلمين .

وقد عمل الاستشراق بكامل طاقاته ، وعلى جبهات متعددة فى تخفى تمام فى ديار الإسلام على مدى قرون متتابعة ، كتب فى أنائها التقارير تلسو التقارير للحكومات الأوروبية المتعاقبة يحثها فيها على تجريد الحملات لاحتلال ديار المسلمين .

{تابع} مجلة الأزهر . مقالة : الأزهر جامعاً وجامعة . محمد كمال السيد . ص ٧٣٣-٧٣٤ . عدد ربيع

الأول ١٣٩٩هـ / فبراير ١٩٧٩ م .

(١) عجائب الآثار ١٧٩/٢ .

وقوى نشاطه في القرنين السابع عشر والثامن عشر بصورة ملحوظة خاصة في مصر نظراً للنهضة الشاملة في جميع الميادين بالمنطقة العربية الإسلامية<sup>(١)</sup>.

تكلم الأستاذ محمد عبد الله عنان - رحمه الله - عن الأحوال التي مرت بها مصر في هذه الفترة ، ونشاط المستشرقين الإنجليز والفرنسيين طلائع بلادهم لاستعمار ديارنا فقال : " نرى ثبناً من الرُّحْل<sup>(٢)</sup> الغربيين يفدون عليها في فترات متقاربة ، ويدرسون أحوالها وشؤونها بعناية ودقة ، وكان جُل هؤلاء الرحل من الفرنسيين والإنجليز . فهل كان مقدمهم إلى مصر في تلك الظروف أمراً عرضياً؟ وهل كانوا طلاب سياحة وثقافة ودرس فقط ؟ أم كانوا طلائع الاستعمار الغربي المتوثب يومئذ ، قدموا إلى مصر يجوسون خلالها ، ويفقدون شؤونها وأسرارها تمهيداً لمشاريع يجيش بها هذا الاستعمار ؟ .

يلوح لنا أن هذه الرحلات والدراسات المستفيضة ، لم تكن بريئة كل البراءة ، ولم تكن بعيدة كل البعد عن وحى الاستعمار ومشاريعه ، ولقد ألقى الاستعمار في هذه الدراسات كل ما يرغب في معرفته عن مصر ، وجاء بونابرت إلى مصر تحذوه أحلام إمبراطورية عظيمة ، كان يعتقد أنه يستطيع أن يتخذ مصر قاعدة لتحقيقها. " (٣).

وكانت الجيوش الاستشراقية التي توزعت في أماكن شتى من عالمنا الإسلامي

(١) انظر رسالة في الطريق إلى ثقافتنا . محمد شاكر . ص ١٦٣-١٧٦ . دار الهلال ١٩٩١م عدد (٤٨٩) ، وقد اعترف بهذا "كرسنوفر هيرولد" في كتابه "بونابرت في مصر" ص ٢١-٢٥ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م . ترجمة فؤاد اندراوس .

(٢) هم في الحقيقة مستشرقون ، وقد صرح بذلك بعد أسطر من الصفحة في حديثه عن "سافاري" . انظر ص ٢٣٤ .

(٣) مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ٢٣٤ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ ، وانظر ودخلت الخيل الأزهر . محمد جلال كشك ص ٣٣ .

مدربة تدريبا جعلها تؤدي دورها ببحث ومكر شديدين دون أن يشعر بهم أحد. يقول العلامة محمود شاكر : ” وفي خلال هذه الفترة أيضا ، تكاثرت عدد المستشرقين حملة هموم المسيحية الشمالية ، وتوافدوا على مصر في كل زى : زى طلبة العلم والمعرفة ، وزى السائح المتجول في ربوعها شمالا وجنوبا ، وأخطرهم شأننا من لبس منهم زى أهل الإسلام ، وجاور في الأزهر ، ولزم حضور دروس المشايخ الكبار ، وصلى مع أهل الإسلام وصام بصيامهم وخالط جماهير طلبة الأزهر مسلما لا يرتاب فيه أحد ، ولا يعرف أحد حقيقته أو أصل بلاده التي جاء منها ، وإنما هو مسلم كسائر المسلمين الذين يجاورون في الأزهر من كل جنس ولون . وكثير من هؤلاء من أقام في دار الإسلام إقامة طويلة متمادية ، كالمستشرق الداهية المحنك المستر الخفي الوطاء "فانتور" الذي قضى أربعين سنة يتجول في دار الإسلام ، والتحق بعدئذ بالحملة الفرنسية ، فكان شيطان نابليون ومستشاره وخطيله ونجيه الذي لا يفارقه في الحل والترحال .“<sup>(١)</sup>

ومثله في ذلك "بجالون" الذي قضى بمصر ثلاثين سنة يكتب لفرنسا التقارير عن مصر ، وسافر إلى فرنسا يحض حكومتها على احتلالها واقتنص بالفكرة نابليون و"تاليران" وزير الخارجية<sup>(٢)</sup>.

و"سافاري" الذي قدم مصر قبل الحملة بقليل سنة (١٧٧٦م) ، فقضى بسببها ثلاثة أعوام طاف خلالها أوجاء الديار المصرية من شرقها إلى غربها ، ومن شمالها إلى جنوبها ، وزار جميع معالمها ومعاهدها وآثارها ، ودرس جميع أحوالها وشؤونها ومجتمعاتها ، ودرس اللغة العربية ، والدين الإسلامي ، ووضع عن رحلته ودراساته في مصر طائفة من الرسائل المستفيضة ملأت ثلاثة

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ١٨٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٢ .

بمجلدات ، ونشرت بين سنتي (١٧٨٥م) و(١٧٨٩م) ، ضمنها - كما ذكر - وصفا لخلال أهل مصر القديمة والحديثة ، ووصفا لنظم الدولة ، وأحوال التجارة والزراعة ، وغزو القديس لويس لدمياط منقولا عن "جوانفيل" والروايات العربية ومعها خرائط جغرافية ، وهو بالطبع لم يقدم هذا العمل من تلقاء نفسه ، وإنما قدمه بناء على طلب الدوق "دورليان" أخى الملك لويس السادس عشر ، الذى نصحه بدراسة أحوال المجتمعات التى اعتزم زيارتها ، وخلالها ، وعاداتها ، ولغاتها<sup>(١)</sup> .

وكان الاستشراق يتولى فى مصر - كما ذكر العلامة محمود شاكر - عملا خبيثا آخر ، ويجند فيها جندا من الأرمن والأروام والمالطيين وغيرهم ، ويحملهم ما فى قلبه من هسموم المسيحية الشمالية ، و يغذيهم بالأحقاد المكتمة ، وبلهيب بغضائه الغائرة فى العظام ويدربهم على الدهاء والمكر ، وعلى اتخاذ أقنعة البراءة والبشر والمداينة والتفان فى معاشرة أهل دار الإسلام ، ويعينهم بخبرته الواسعة على الميظنة والتنبه والمراقبة ، ويحشد معهم أيضا طوائف من يهود الشمال ومن اليهود المقيمين فى دار الإسلام فى مصر ، ويستزل طوائف من شذاذ الآفاق من أهل دار الإسلام وغير دار الإسلام ، كنصارى الشام وسفلة المغاربة ، يستأجرهم لتوسيع خبرته تارة ، وتارة أخرى لبث أفكار درسها المستشرقون ، أو ظنوا أنهم درسوها وأتقنوها ، ويحاول الاستشراق أن يشيعها بين جماهير دار الإسلام فى مصر خاصتها وعامتها ، وللتحكم فى تصريف أموره وغاياته ، ثم للتمكن من إشعال نار الفتنة حين يقتضى الأمر إحداث فتن تفرق شمل الناس وتمزقهم وتشغلهم عن الكيد الخفى الذى يراد بهم . وكل هذا كان يتم فى هدوء وصبر وتستر ، ومن وراء الغفلة ، غفلة أهل دار الإسلام عن جذور قضيتهم . وقد ظهر أثر هذه الحشود جليا

(١) مصر الإسلامية ص ٢٣٤-٢٣٥ بتصرف .

واضحاً زمان الحملة الفرنسية ، وفي البلايا التي حدثت منهم خلال ثورات القاهرة التي اشتعلت على جيش الغزاة الفرنسيين ، مما كاد يفت في عضد الثوار ويعثر خطاهم ويشتت شملهم .<sup>(١)</sup> .

لقد حاول فريق من هؤلاء المستشرقين المتخفين في رى طلاب مسلمين التلبس على المشايخ بإحناقهم على الممالك وتسهوين أمر احتلال الفرنسيين لمصر . وحاول فريق ثان التلبس على الممالك بالإيقاع بينهم وبين المشايخ وتخويفهم من قوة الفرنسيين والواجب الرضوخ لهم .

” وكان آخرون من المستشرقين يتأهبون لإحداث فتنة كبيرة ، إذا ما دخلت جيوش الفرنسيين القاهرة ، فطافوا بالكنيسة القبطية المصرية ، وحاولوا أن يستثيروا حميتها ، وأن يفروها بأن استجابتهم للفرنسيين إنما هو نصرة لدين المسيح على دين الإسلام ، وأن واجبهم ديانة أن يناصبوا الفرنسيين ، ويناصبوا المسلمين العداء ، حتى تعلو راية المسيحية ، ويصبح المسلمون أتباعاً لهم ورعية لا سلطان لها ، لا يملكون إلا الطاعة المستكنة لدين المسيح . بيد أن الكنيسة القبطية أعرضت عنهم وعن إغرائهم “<sup>(٢)</sup> .

فولوا وجوههم شطر طائفة الأقباط الأغنياء الذين كان عملهم حباية الأموال ، وضبط مالية الممالك ، فاستعصى عليهم أكثرهم واستجاب لسهم ”المعلم يعقوب” وجمع لهم من سفلة القبط وعامتهم وغوغائهم عدداً كبيراً وانضم جبهة إلى الفرنسيين ، فكان منهم نابليون جيشاً سماه ”جيش الأقباط” على كراهية الكنيسة القبطية وعلى غير رضاها . وهذا الخسيس ”المعلم يعقوب” كان هو

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩٤ .



وجيشه فتنة كبيرة وبلاء ويلا .<sup>(١)</sup>

وكان يضاهيه في الغدر والخسة "بارتلمى" الملقب "ببرطلمين" أو "فسرط الرمان"<sup>(٢)</sup>.

واضح من هذا العرض السابق أن الاستشراق نفذ - ولا يزال ينفذ - المخطط الذى وضعه لويس التاسع ، وأوصى باتباعه .

"فالحملة الصليبية الفرنسية التى استجابت لنذير "الاستشراق" ، كان "الاستشراق" مستكنا فى أحشائها وأحشاء قائدها العظيم "نابليون" يرشده "الاستشراق" ويهديه. وهى لم تقدم على اختراق دار الإسلام فى مصر ، إلا وهى مزودة بأدق التفاصيل عن هذه الأرض وسكانها ، ومداخلها ، ومخارجها ، ومشايخها وعلمائها ، وعامتها وسوقها ، ونسائها ، ورجالها ، وجيشها وشعبها . جاءت معها الدجالون العتاه "علماء الحملة الفرنسية" ومستشرقوها وخيائرها وأعوانها من اليهود وشذاذ الافاق ، وكلهم يد واحدة على إحداث انتهار مفاجئ يصدم وعى الشعب بحاصته وعامته ، صدمة تذهله عن المكر المستور المفضى إلى تدمير روح المقاومة أو إضعافها إضعافا يتيح للغزاة تثبيت أقدامهم فى

(١) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ص ١٩٦ ، وانظر بونايرت فى مصر ص ٢٥٤-٢٥٥ .

(٢) يقول الجبرتي عن أحداث (١٣ صفر ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م) : " وفيه قلدوا "برطلمين" النصراني الرومى ، وهو الذى تسميه العامة "فرط الرمان" كتحدا مستحفظان (نائب القاهرة) ، وركب بموكب من بيت صاوى عسكر وأمامه عدة من طوائف الأجناد والبطالين مشاة بين يده ، وعلى رأسه حشيشة من الحرير الملون ، وهو لابس فروة بزعادة ، وبين يديه الخدم بالحرايب المفضضة ، ورتب له "بيوك ياشى" وقلقات ، عينوا لهم مراكر بأحطاط البلد يجلسون بها ، وسكن المذكور بيت "يحيى كاشف الكبر" بحارة عابدين ، أحدهما فيه من فسرش ومتاع وجوارى وغير ذلك ، والمذكور من أسافل نصارى الأروام العسكرية القاطنين بمحصر ، وكان من الطبعية عند محمد بك الألفى ، وله حابوت بخط اللوسكى يبيع فيه القراوير الزجاج أيام البطالة . " [عجائب الآثار ص ١٩٥] .

الأرض والسيطرة عليها سيطرة كاملة ، حتى لا تدع للمقاومة طريقا إلا طريق  
الاستسلام العاجز للمصير المظلم ، مصير معتم لا يستفيق الشعب إلا وهو مرتكس  
في ظلماته عاجزا غير قادر على طلب المخرج من ظلماتها المدمرة ، في  
"قاهرة جديدة" زاهرة زاهية الألوان ، قامت على أنقاض "قاهرة قديمة" مدمرة  
غابت في قتام الذكريات ١١. "١" .

### نابليس نابليون على المسلمين :

حكى المستشرقون لنابليون اللعبة وعلى رأسهم "فانتور" و"مارسل" لمعرفتهم  
بأحوال البلاد الإسلامية وطبيعة أهلها ، فأعدوا له منشورا على ظهر البارجة  
"أوريان" - أى الشرق - قبل رسوها على شاطئ الإسكندرية بعدة أيام ،  
وصاغوه في لغته العربية الركيكة بواسطة المطبعة العربية التي جاءوا بها معهم <sup>(٢)</sup> .  
وسجله الجرتى في تاريخه بنصه ، وأمر "نابليون" بتوزيعه على المسلمين عن طريق  
جواسيسه الذين بثهم في النواحي والمسلمين الذين أسره من جزيرة مالطة  
واستقدمهم معه على ظهر أسطوله .

وقد ابتدأه بالبسملة ، وكلمة التوحيد ، وادعى أنه محترم للنبي ﷺ وللقرآن  
الكريم ، وأنه يعبد الله تعالى ، وأن الجميع متساوون عند الله ، لا فضل بينهم إلا  
بالعقل والعلم (هكذا ١١) ، وأنه والفرنسيون مسلمون مخلصون ، ودل على  
كلامه - حسب زعمه - بأنه نزل "رومية" ونحرب كرسى البابا الذى كان

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ١٤٩-١٥٠ .

(٢) تاريخ الحركة القومية . الرابع ٨٧/١ .

جمع نابليون هذه المطبعة أحرفا عربية وفرنسية ويونانية وعبرية وسريانية ، وعهد بإدارة هذه المطبعة إلى أحد  
المستشرقين أعضاء اللجنة العلمية ، وعين كاتم سره وترجمانه "فانتور" مفتشا عاما لها ، بحيث كان لا يطبع على  
شئ إلا بأمره شخصيا ، وكانت منشورات ومطبوعات نابليون في مصر تطبع في هذه المطبعة . [يوسف باشا  
القرمانلى والحملة الفرنسية على مصر ص ٢٠٩ ، بونايرت في مصر ص ١٧٩-١٨٠] .

دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام ، وأنه قصد مألظة وطردها منها "الكوالرية" الذين زعموا أن الله تعالى طلب منهم مقاتلة المسلمين . وأنه جاء لتحريرهم من نير المحاليل أعداء العقل والعلم (١١) ، وأنه محب للسلطان العثماني يحسب أحبابه ويعادى أعدائه ، وكل هذا محاولة استمالة المصريين إليه .

وأصدر في نفس المنشور عدة مواد تلزم المصريين بالخضوع لأوامر الفرنسيين ، وتوعدهم بالويل والثبور إن هم قاوموا (١) .

وإمعانا في التلبيس كان يرتدى العمامة أحيانا ، وأمر ببناء مسجد وإطلاق اسمه عليه ، وكان يحضر المولد مع الناس (٢) . بل ويتظاهر بالصلاة مع الشيوخ أيضا (٣) .

وصفه هيروولد بأنه كان أشبه بحرباء بشرى يستطيع في لحظة أن يقلب من المحارب المدمر إلى المشرع أو العالم أو اللاهوتي (٤) .

كل هذه الألاعيب الاستشراقية والتليسات النابليونية لم تنطل على الشعب المصري المسلم ، فنظروا إليهم على أنهم جاءوا لاحتلال الديار وطمس معالم الدين وإذابة المسلمين في الغربيين والاستيلاء على خيرات الأمة ، فأبغضوهم أشد البغض وقاوموهم ، وهذا ما صرح به المسيو "بوسليج" أحد علماء الحملة وغيره من الفرنسيين المصاحبين لها كما سيأتى .

يقول الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس - رحمه الله - : "وقد نظر المصريون أول ما نظروا لقائد الحملة وجنوده على أنهم أبناء أولئك "الفرنسيين" الذين

(١) انظر عجائب الآثار ١٨٢/٢ - ١٨٤ ، بونايرت في مصر ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) انظر عجائب الآثار ٣٠١/٢ - ٣٠٥ ، بونايرت في مصر ص ١٦٢ - ١٦٣ ، ص ١٩٩ .

(٣) بونايرت في مصر ص ٢٣٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١٦٥ .

حاولوا أن يهزوا مصر أيام الحروب الصليبية ، فباؤوا بالفشل ، وأدت إحدى حملاتهم إلى أسر ملكهم لويس التاسع وسجنه في دار ابن لقمان ا ، ولم تنغير هذه النظرة في جوهرها أثناء مقام الحملة ، بالرغم من اختلاف الأحوال في مصر عما كانت في ذلك العهد ، فظلوا يناوؤون بكل الوسائل - وإن كانت ناقصة - حتى استطاعوا - مثل أسلافهم - أن يخرجوا الغاصب ولو بعد حين ، ويجلوه عن بلادهم . " (١) .




---

(١) تباشير النهضة في العالم الإسلامي ص ٥٣-٥٤ .

## الأغراض الحقيقية للعملة الفرنسية ومآسيها

نظر المصريون - كما سبق - للحملة الفرنسية على أنسها حلقة من سلسلة الحملات الصليبية على العالم الإسلامى ، جاءت لتحقيق أغراضها المرسومة لها والتي تظهر الوجه الحقيقى القمى لحملة التنوير !!! .

ومن الأغراض التى عانى منها أبناء مصر على أيدي رجال الحملة ما يلى :

### أولاً : وأد اليقظة الإسلامية :

وأد اليقظة الإسلامية بالمنطقة الإسلامية ومنها مصر كان أحد الأغراض الرئيسية التى تحركت لأجلها الحملة الفرنسية بل والحملة الإنجليزية أيضاً بفضل العون الاستشرافى الذى اشتد أواره فى هذه الفترة ، وهذا ما جعل الدولتين تتصارعان فيما بينهما على الظفر بالمنطقة وحوز السبق بالقضاء على اليقظة الإسلامية التى بدأت تنامى فى مصر والجزيرة العربية . يقول العلامة محمود شاكر : " وأما فرنسا التى عادت من الهند تلعق جراح هزائمها ، فكان وقع النذير مختلف الأثر ، مختلف الأسلوب ، فى قصة طويلة من تنبه "الاستشراق" لما يجرى فى دار الإسلام . فإذا كانت إنجلترا قد ظفرت بنصيب الأسد فى الهند ، فإن لفرنسا نصيباً قريباً تعد العدة للظفر به ، لا يفصل بينها وبينه إلا بحر ضيق ، ممكن أن يكون لها عليه السلطان الأعظم . ومن قبل ظلت تدبر الأمر زمناً طويلاً لتنظف نفسها بهذا النصيب فى مصر والجزائر ، ومعنى ذلك أنها عادت مرة أخرى أخرى تفكر فى اختراق دار الإسلام ، الأمر الذى كان مستعصياً نحو عشرة قرون أو أكثر . وكان نذير "الاستشراق" يومئذ يحذر المسيحية الشمالية من هذه "اليقظة" المخوفة العواقب: يقظة اللغة على يد الشيخين الكبيرين البغدادى والزبيدى وتلامذتهما ، ويقظة "علوم الحضارة" على يد الشيخ الجحرى الكبير وتلاميذه .

"يقظة" فى دار تضم أقدم بيتين من يئوت العلم على ظهر الأرض ، عاشا

جميعا متواصلين اثني عشر قرنا موثلا للعلم والعلماء ، هما "الجامع العتيق" بالفسطاط (جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه) و"الجامع الأزهر" بالقاهرة ، وهما اسمان يترددان في أرجاء دار الإسلام من المشرق إلى المغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب . فاليقظة التي تأتي من قبلهما سوف تؤدي إلى يقظة دار الإسلام كلها ، بما فيها اليقظة المتفجرة المتحركة الجديدة في جزيرة العرب : فإذا تم اندماج اليقظتين فلا يعلم إلا الله كيف يكون المصير ؟" (١) .

"ولا جدال في أن الفترة التي سبقت الغزو الفرنسي ، كانت المرحلة التي وصل فيها تخلفنا إلى أبشع صوره ، ومع ذلك فتاريخ الجيرتي حافل بالمعلومات عن نوعية اهتمامات الشيوخ في هذه الفترة ، مما يتفنى تماما الصورة السهلية التي يقدمها مؤرخوا الحملة وتلاميذهم ، عن انبهار الشيوخ بتكنولوجيا الفرنسيين من حيث كونها تكنولوجيا ، وإن كانوا قد انبهروا - فعلا - بتفوق الفرنسيين." (٢) .

ومما حفل به تاريخ الجيرتي ما ذكره عن أبيه "الجيرتي الكبير" الذي كان بارعا في علوم كثيرة ، وقصده الطلاب من كل مكان في داخل مصر وخارجها . حتى الأوروبيون أنفسهم قصدوه في مصر وتعلموا على يديه في العلوم التجريبية . وعادوا إلى بلادهم لتطبيق ما حصلوه نظريا هناك في ديارهم مساهمة مجانية من علماء مصر في الثورة الصناعية في أوروبا .

وما "الجيرتي الكبير" إلا مثال للكثيرين من العلماء الذين عاصروه أو

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ١٢٩-١٣٠ ، وانظر تاريخ العالم الإسلامي د. إبراهيم أحمد المسعودي

٣٢٨/٢-٣٢٩ . مكتبة الأنجلو ١٩٨٦م ، ودخلت الخيل الأزهر . محمد جلال كشك ص ١٦

ص ٧٩-٩٧ . الزهراء للإعلام العربي . الثالثة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

(٢) ودخلت الخيل الأزهر . ص ٨٩ .

جاءوا بعده لإحياء اليقظة الإسلامية بمصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي<sup>(١)</sup>.

و"الجبرتي الصغير" المؤرخ الذي عاصر الحملة كان هو الآخر أحد هؤلاء العلماء ، وقد نقل إلينا ما دار في الجمع العلمي الذي أنشأه نابليون بالقاهرة في (٢٢ أغسطس ١٧٩٨م) عقب احتلاله مصر بزمان وجيز<sup>(٢)</sup> ، وفرق فيما شاهد بين الحيل التي لا تنطلي على عالم مثله كحيله البالونة القماش التي ادعوا أنها ستسافر إلى فرنسا وأنها ستحمل الناس والرسائل ، لكن سرعان ما سقطت وظهر كذبهم حتى قال ساخرا : " بل ظهر أنها مثل الطيارة التي يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح . " ، فرق بين مثل هذه الحيل وبين العلم الحقيقي الذي يقسدر ويحترم ويعرفه أمثاله . كما فرق بين التكنولوجيا الإرهابية القائمة على التجسس والتدمير والتكنولوجيا العمرانية النافعة للبشرية<sup>(٣)</sup>.

قال الأستاذ محمد جلال كشك متسائلا وساخرا من عقول أدعياء التنوير الذين رموا علماء مصر بكل نقيصة ونسبوا للفرنسيين كل فضل في دحضه لافتراءاتهم: " أيهما أكثر علمية .. الفرنسيون الذين كانوا يسأملون في طيران البالونة إلى أن تختفي عن الأنظار فيزعمون أنها طارت إلى فرنسا ! .. والذين أشاعوا أنها يمكن أن تستخدم في التجسس للإرهاب وخلافه ؟ أم الجبرتي الذي يفهم سبب انتفاخها وهو امتلاؤها بالغاز .. ثم ارتفاعها بسبب طلب الدخان الصعود .. وهو صحيح تماما .. ثم الذي يعلق في موضوعية كاشفا الخدعة ، أنها لا تزيد عن تطوير في الطيارة التي اعتاد الفراشون عملها في الأفراح ؟ " <sup>(٤)</sup>.

(١) انظر ودخلت الخيل الأزهر ص ٩٠-٩٧ حيث ذكر الأستاذ محمد جلال كشك أسماء علماء كثيرين غير الذين ذكرهم الجبرتي ساهموا في النهضة العلمية بمصر قبل زمان الحملة الفرنسية وبعد قدومها .

(٢) عجائب الآثار ٢/ ٢٣٠ .

(٣) راجع عجائب الآثار ٢/ ٢٣١-٢٣٦ .

(٤) ودخلت الخيل الأزهر ص ٤٤٥ .

وقال معلقا على منع الفرنسيين أبناء مصر من العمل في مصنع النسيج السذى  
أورد الجيرتى ذكره : " ولا يجوز أن نتوقف طويلا عند حديثك التكنولوجى ،  
بعدها عرفناه عن موقف رجال الاحتلال فى قصة مصنع "الجوخ" حيث رفضوا  
السماح للعمال المصريين بالعمل فى المصنع خوفا من تعلمهم أسرار الصناعة . "(١)

فهل يصدق عاقل - بعد هذا - أن المعهد العلمى كان لبعث النهضة العلمية  
بمصر وهم الذين جاوزوا لإماتتها ١٩ .

إن هذا المعهد كان فرعاً للمجمع العلمى الفرنسى بباريس ، أنشأه نابليون  
ليكون مكملًا له هناك ، وخادما للأغراض الاستشرافية ، ومذلا للعقبات التى  
تعرض طريق الجيش الغازى ، بصرح هيرولد فيقول : " كان هدف حملة  
بونابرت تحويل مصر إلى مستعمرة لفرنسا تجنى من ورائها كسبا . ولتحقيق هذا  
الهدف لم تكن اللجنة العلمية أقل أهمية من الجيش . "(٢) ، وكتاب وصف  
مصر (٣) كان الغرض منه خدمة الاستشراق بالدرجة الأولى .

وخبرنى بربك هل ورد عن أحد من أبناء مصر من المعاصرين للحملة من أنه أو  
غيره تنور بتلميذته على أيدي علماء الحملة ، أو حتى بحضوره مناقشات المعهد  
العلمى ١٩ :

وتقدم أن الجيرتى كما أخبر عن نفسه وسجل ما شاهد لم ينسحق أمام ما فعله  
الفرنسيون ، وما حدث من الشيوخ كان مجرد انبهار ببعض التجارب ، لكن لم  
يتعلم أحد منهم أو من تلامذتهم . يقول هيرولد : " وتجمع شهادة شهود العيان

(١) المرجع السابق ص ٤٤٧ .

(٢) بونابرت فى مصر ص ١٩٠ .

(٣) هو كتاب يحتوى على عشرة مجلدات من النصوص ، وأربعة عشر مجلدا من اللوحات ، وقد نشر بسين  
عامى ١٨٠٩م ، ١٨٢٨م [بونابرت فى مصر ص ١٨١] .



الفرنسيين على أن زوار المجمع المسلمين لم يقع من نفوسهم ما رأوه أى موقع.<sup>(١)</sup>

وأما المطبعة التى جاء بها نابليون معه ، وضخم كتاب مادة التاريخ لأبنائنا فى المراحل التعليمية وأدعاء التنوير شأنها ، فإن نابليون قد اصطحبها معه لخدمة المآرب الاستعمارية ، بكتابة المنشورات التى تخضع الشعب لأوامر المحتل بالعريسة ، فهى إذن قد جئ بها لمصالحهم دون أن يستفيد المصريون منها شيئا . وسنعلم بعد حين مصدرها باعتراف المؤرخين الفرنسيين ، وهم قد أخذوها معهم حين رحلوا إلى بلادهم . أما المطبعة الأميرية التى عرفت فيما بعد بمصر وخدمت الجوانب العلمية ، فقد جئ بها فى عهد محمد على<sup>(٢)</sup> .

وأما حجر رشيد الذى صدعوا رءوسنا بالحديث عن فك رموزه فسيأتى الحديث عنه فى اعتراف الكاتب الفرنسى "ليجران" .

الحق أن القوم ما جاءوا لبعث نهضة بديارنا ، بل لإماتها . وحق لرجل مثل "هيرولد" أن يقول فى ملاحظاته على الحملة : "فمصر كان مآلها إلى التغير ، حتى ولو لم يظهر بونايرت قط فى سمائها ، وآيات الفن وروائعها فى الأقصر والكرنك كان مصيرها إلى الكشف ، حتى ولو لم يزحف "ديزيه" قط إلى الصعيد ، والرموز الهيروغليفية كانت ستفك ، حتى ولو لم يكشف حجر رشيد إلا بعد الحملة بسنوات ، وقناة السويس كانت ستحفر حتى ولو لم يأمر بونايرت بمسح برزخ السويس ."<sup>(٣)</sup>

(١) بونايرت فى مصر ص ١٨٦ . وإن كان قد تمحل فى التعليق على هذه الشهادة .

(٢) انظر تاريخ الحركة القومية ١٤٠/١ .

(٣) بونايرت فى مصر ص ٤٠٣ .

## ثانيا : سرقة نفائسنا العلمية :

كان من أغراض الحملة الفرنسية إخماد لوأد اليقظة الإسلامية في ديارنا سرقة كنوزنا العلمية التي زخرت المكتبة العربية الإسلامية بها ، تحدث الجبرتي في مقدمة تاريخه عن كتب العلم التي ملئت بسها الخزائن وفقدان الكثير منها فقال : ” ثم ذهبت بقايا البقايا في الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيين ما وجدوه إلى بلادهم . “ (١) .

فهو يخبر عن نية القوم المبيتة لنفائسنا العلمية ، ومحيطهم للسطو عليها وإرسالها إلى ديارهم للاستفادة بعطاء العقل المسلم الذي قدمه لنا الأسلاف من آباءنا لدفع عجلة التقدم الصناعى عندهم وإيقافه عندنا ، وتمكين المستشرقين من الإطلاع على تراثنا مباشرة دون واسطة للتنقيب عن ثغرة ليث الشبهات الفكرية بين أبنائنا .

يقول العلامة محمود شاكر رحمه الله عن هذه السرقة : ” ولكنهم - أى الفرنسيون - لم يرحلوا عن القاهرة المخربة ، وعن الشعب الذى استنزفوا ثرواته بالضرائب والإتاوات مدة ثلاث سنوات حتى سرق "المستشرقون" المصاحبون للحملة الفرنسية ، و"مستشرقون" آخرون من كل جنس ، سرقوا كل نفيس من الكتب ، وكانت القاهرة يومئذ من أغنى بلاد العالم بالكتب . ودليل السرقة قوائم بين أعيننا إلى هذا اليوم ، يصيح شاهدا على نفسه بالسطو على ذخائرنا التى يمنون علينا بعد ذلك ، فى حياتنا هذه الأدبية الفاسدة : أنسهم حفظوها لنا ، ونشروا لنا نفائسها . دليل السرقة قائم فى جميع مكتبات أوربة ، صغيرها وكبيرها ، فى فرنسا وإنجلترا وهولنده وروسيا وغيرها من البلدان ، وفى الأديرة والكنائس ، وفى جميع أرجاء العالم المتحضر !! وكان همهم الأكبر يومئذ هو السطو على كتب "علوم

(١) عجائب الآثار ١/ ١١ .

الحضارة" أولا ، ثم على كتب "التاريخ" ثم على كتب "الآداب" كلها بلا تمييز .  
ورحم الله الشيخ الجبرتي المؤرخ ، فإنه أرخ لدمار القاهرة ، ولكنه يغفلت لم يؤرخ  
لنا تاريخ هذا السطو على كتب المساجد والمدارس وبيوت العلماء والأمراء  
والماليك المصرية إلا في مواضع متفرقة قليلة بلا بيان واضح ، وإنما هي  
الحسرة لا غير " (١) .

ثم يذكر الغرض الأساسي من وراء هذا السطو فيقول : " لم يكن هذا السطو  
الجائع على كتب دار الإسلام في القاهرة ، والذي تولى كبره "مستشرقو" الحملة  
الفرنسية وأعوانهم من اليهود ومستشرقو سائر بلاد المسيحية الشمالية - لم يكن  
هذا سطوا مجرد رغبة "الاستشراق" في أداء عمله ، من استمداد لثقافة أمم من علم  
دار الإسلام المسطور في الكتب ، ولشدة حاجة يقظتهم ونهضتهم يومئذ إلى هذا  
العلم ، لا ، بل كانت الغاية الأولى المقدمة على كل غاية ، هي تجريد دار الإسلام  
في القاهرة من أسباب "اليقظة" التي جاءت الحملة الفرنسية لرأدها في مهدها ،  
والقضاء عليها قبل أن تتفاقم . ووفرة هذه الكتب النفيسة في القاهرة يومئذ ، هي  
التي يسرت الطريق إلى هذه "اليقظة" التي حمل عبء البدء بها "الجبرتي الكبير"  
وتلامذته و"البغدادى والزبيدى وتلامذتهما" ، فكان لا بد لفلول الاستشراق  
وفلول الحملة الفرنسية من إتمام ما جاءت الحملة من أجله ، فهو الهدف الأكبر :  
وأد اليقظة في عقر دارها . " (٢) .

### ثالثا : الاعتماد على حرمة الأزهر وغيره من المساجد :

تمتع الأزهر على مدى تاريخه بمكانة مرموقة لدى المسلمين جميعا . ولا ريب ،  
فهو قد مثل للأمة مركز القيادة وعبر عن إرادتها بمواقف علمائه الجريئة لإعادة

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ١٤٢-١٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٤-١٤٥ .

الحقوق لأصحابها حين يعتدى عليها جائر ، وهو جامعة علمية عريقة قسدت المسلمين نحو التقدم في جميع المجالات .

لأجل هذا كان شغل الغزاة الفرنسيين الشاغل هو تحطيم هذه المكانة التي احتلها الأزهر في قلوب المسلمين بالاعتداء على حرمة دون مراعاة لمشاعر أحد منهم .

يصف الجبرتي شنائع الفرنسيين إبان ثورة القاهرة الأولى ، وما أحدثوه في الجامع الأزهر خاصة فيقول : ” ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحدائق ، وكسروا القناديل والسهوات ، وهشموا خزائن الطلبة والمحاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمنجيات بالدواليب والخزانات ودثروا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا فيه تغوطا وبالوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب ، وكسروا أوانيها وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه . “<sup>(١)</sup>

وقال "ريو" واصفا تأثير ضرب مدافعهم فيه : ” أوشك الجامع الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب فتدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه ، وأصبح الحسى المجاور للأزهر صورة من الخراب والتدمير ، فلم يكن يرى فيه إلا بيوت مدمرة ودور محرقة ، وماتت تحت الأنقاض آلاف من السكان الآمنين كان يسمع لهم أنين موجه وصيحات مرعبة ، وكانت الجهات القريبة من الأزهر ولاسيما شوارع الغورية والصنادقية مسرحا لهذه المشاهد الفظيعة . “<sup>(٢)</sup>

(١) عجائب الآثار ٢/٢٢٠-٢٢١ .

(٢) تاريخ الحركة القومية ١/٢٧٨ .

أرأيت بشاعة كهذه التي يذكرها الجبرتي على دقته في التعبير ، بل و"ريو" وهو من بنى ملتهم وجلدتهم من صنيع الغزاة الفرنسيين بالأزهر ١٢ أهذه أوصاف حملة التنوير ، أن يقصد هؤلاء أماكن العبادة وقلاع العلم لضرب الأمة في عقيدتها وحضارتها بهذه الصورة البشعة ١٢ .

إن هذه أول مرة في التاريخ يقتحم فيها الأزهر على هذا النحو ، وتهدر كرامته بهذه الأسلوب البربري الذي لا يشبهه إلا الاحتلال الصليبي لبيت المقدس في القرن الحادي عشر للميلاد ، وإحراق الاحتلال الصهيوني للمسجد الأقصى وصنيع الصرب في شرق أوروبا والهندوس في شبه الجزيرة الهندية في القرن العشرين بالمساجد هناك .

وفي كتاب "نقولا الترك" أن نابليون رفض الجلاء عن الأزهر ، وأن هذا الاحتلال قد أحدث أثرا فظيحا في الجماهير المصرية وقياداتها ، وما زال العامق في مصر حتى حين يضربون المثل على أبشع ما يمكن أن يقع بقولهم : "الخيل دخلت الأزهر" (١) .

وهل اقتصر الاعتداء على الجامع الأزهر ؟

لقد نعداه إلى غيره من المساجد الكبيرة الأخرى ، مثل مسجد عمرو بن العاص أول مسجد بني في مصر وهو المعروف باسم "الجامع العتيق" ، فقد عمر المسجد قبل قدوم الحملة الفرنسية بعام واحد ، فإذا به يعتدى على حرمة ويخرب على أيدي رجال التنوير والتعمير !!! يقول الجبرتي متحسرا على ما جرى له على أيدي الغزاة المستعمرين : " فلما حضرت الفرنسية في العام القابل (أي عام ١٢١٣هـ) جرى عليه ما جرى على غيره من السهدم والتخريب وأخذ أحشابه

(١) انظر ودخلت الخيل الأزهر ص ٢٢٠ .

حتى أصبح بلفعا أشوه مما كان (أى قبل الإصلاح) فبا ليتها لم تتصدق .<sup>(١)</sup>

واتخذوا من مسجد الظاهر قلعة ، وجعلوا من مثذنته مرصدا وأقاموا فى داخله عدة مساكن لجندهم ، وحظائر لخيولهم ، ووضعوا على أسواره المدافع<sup>(٢)</sup> .

كما هدموا مساجد أخرى بالجملة ، وحولوا بعضها إلى حمامات كالذى فعلوه بمسجد "الرويعى" بالقاهرة<sup>(٣)</sup> .

### رابعا : التنكيل بقيادة الأمة :

أقدم رجال الإنحاء والحرية والمساواة على عمل إجرامى آخر لم يسبق له مثيل فى تاريخ مصر ، ويضم إلى سجل الحملة الوحشية ، ذلك العمل هو الانتقام من قادة الأمة — علماء وتجارا — الذين كانوا العقبة الكأداء أمام أطماعهم الصليبية ، فقد سعوا للخط من مكانتهم التى تمتعوا بها لدى الحكام والمحكومين والتنكيل بهم على نحو لم يشهده تاريخهم من قبل ، وهم الذين ادعوا أنهم جاءوا لتحرير الأمة من نير المماليك !! .

لقد كان لقادة الأمة مكانة معترف بها فى عهد المماليك ، ولم يكن المملوك يتجرأ على المشايخ إلا بجرأة المشايخ على الدين وتكاليهم على الدنيا إلى حد الاستهتار الفاضح بتعاليم الدين ، وارتكاب السلوك المعيب فى حدود فهم المملوك .. وحتى إذا وقع ذلك من بعض المنتسبين إلى المتعممين ، وحاول مملوك أن يستغله فتعدى الحدود ، وتطاول عليه ، فإنه يجابه بمقاومة صلبة من كبار المشايخ وموقف يصل إلى سب الأمير وإبطال قراراته بالقوة<sup>(٤)</sup> .

(١) عجائب الآثار ٢/ ٤٥٠ .

(٢) مصر فى القرن الثامن عشر ص ٦٩ .

(٣) عجائب الآثار ٢/ ٤٣٥ .

(٤) ودخلت الخيل الأزهر ص ٧٨ .

وقد ذكر الأستاذ محمد جلال كشك نماذج عملية لذلك وقعت قبيل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر<sup>(١)</sup>.

أما رجال حملة الإخاء والحرية والمساواة ، فإن قائلهم نابليون قبض في أعقاب ثورة القاهرة الأولى على عدد كبير من علماء الأزهر وسجنهم بالقلعة واشتد في إهانتهم ، ثم أمر بقتلهم وفصل رؤوسهم عن أجسادهم ، منهم الشيخ إسماعيل البراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ سليمان الجوسقى ( شيخ طائفة المكفوفين ) ، والشيخ أحمد الشبراوى ، وكلهم من أواسط علماء الأزهر . وحكم على تسعة آخرين غير هؤلاء بالإعدام غيايبا .<sup>(٢)</sup>

كما أصدر نابليون أمره في ( ٥ سبتمبر ١٧٩٨ م ) بإعدام السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية رميا بالرصاص ومصادرة أملاكه ، ونفذ الحكم في اليوم التالى بميدان الرملية بالقاهرة بعد مدة من سجنه بها<sup>(٣)</sup>.

” وحمل رأسه ليعرض على الملأ في الشوارع ، يقول ”نقولا الترك“ : إن قتله أحدث أثرا سيما في الأهالى ؛ لأنه من سلالة النى .“<sup>(٤)</sup>

وكان قد كتب للجنرال ”رينيه“ يقول : ” في كل ليلة نقطع نحو ثلاثين رأسا أكثرها لزعماء الثورة . وفي اعتقادى أن هذا سيعلمهم درسا نافعا .“<sup>(٥)</sup>

(١) راجع المصدر السابق ص ٧٧-٩٧ تح عوان : ”المتعمرون“ .

(٢) انظر بونايرت في مصر ص ٢١٢ ، تاريخ الحركة القومية للرافعى ٢٨٤/١ ، الجبرنى ٢٧٦/٢-٢٨٠ ، تبشير النهضة في العالم الإسلامى ص ٥٢-٥٦ ، مصر في القرن الثامن عشر . محمود الشبراوى ١٢٦/٣-١٢٨ . مكتبة الأنجلو ١٩٥٦ م .

(٣) انظر تاريخ الحركة القومية ١٨٤/١-١٨٥ .

(٤) بونايرت في مصر ص ١٥٥ .

(٥) المصدر السابق ص ٢١٣ .

كانت هذه أول مرة يتجرأ فيها حاكم على إعدام قادة الأمة ومعاملتهم كما لو كانوا مجرمين يستحقون الإهانة والتنكيل والقتل ، ولم ينج منهم إلا من سار في فلكتهم ، أما من وقف في وجههم وقاد الأمة لصد عدوانهم ، فذلك مجرم يستحق القتل مهما كانت مكانته عند الناس .

لقد أخذوا الشيخ "السادات" أبرز المشايخ ، والرجل الثاني بعد "الشرقاوى" و"رئيس لجنة المصادرات" ، أخذوه وحبسوه بالقلعة ، وحكموا عليه بالإعدام ، ثم خفف الحكم بعد شفاعة الشافعين إلى الحبس والغرامة المالية التي ألجأته إلى بيع كل ما في بيته من متاع وغيره ، ومع ذلك لم يكف المبلغ في دفع الغرامة الباهظة التي فرضوها عليه ، فحبسوا أولاده وزوجته معه ، فكانوا يضربونه في الصباح أمامها خمس عشرة عصا وفي الليل مثل ذلك ، والزوجة تبكى وتصيح ، لكن بدون جدوى نكالا في شيوخ الأزهر <sup>(١)</sup> .

وهذه مناسبة نادرة للشيخ وزوجته لفهم روح الحضارة الحديثة ، وممارسة التحرر الشامل الذي جاءت به حملة التنوير !! .

ولا بد بهذه المناسبة من التعرض للتنكيل الوحشى الذى ظهر في الحكم على الشاب الأزهرى سليمان الحلى ورفاقه الثلاثة الشوام الذين قادهم إيمانهم القسوى دفاعا عن العقيدة والأرض والعرض إلى التخلص من "كليب" قائد جيش الاحتلال المتفطرس المعتدى القاتل <sup>(٢)</sup> .

(١) انظر عجائب الآثار ٣٥٧/٢ ، دخلت الخيل الأزهر ص ٣١٤-٣١٦ .

(٢) تكلم الأستاذ محمد جلال كشك عن دقة التخطيط لاغتيال كليب ، والبراعة في اختيار العناصر وإحكام التنفيذ ، مع وضع الاعتبار لكل الاحتمالات المستقبلية ثم قال : " اهتم التنظيم بكل التفاصيل حتى الفنى مشروعية الإعدام لم ينسها .. وستبقى خالدة في التاريخ تلك الخلية الفدائية الأولى المكونة من ثلاثة من طلبة الأزهر .. الذين نفذوا بنجاح نادر عملية ممتازة ، ثم احتفظوا بسر التنظيم رغم التعذيب الوحشى {تسبح}



فقد سرد الجيرتى<sup>(١)</sup> عملية الاغتيال والقبض على "سليمان الحلبي" ، ومحاكمته ، وما انتهى إليه القاتلون من حكم همجي وحشي لم يدايهم فيه أحد قسهم حتى التار على ما عرفوا به من وحشية .

ينقل إلينا الجيرتى نص حكم قضاة حملة الإنحاء والعدالة والمساواة المسترجم إلى العربية كما وصله والذي يقول : " وأفتوا أن سليمان الحلبي تحرق يده اليمين ، وبعده يتخوزق ، ويبقى على الخازوق لحين تأكل رتمه الطيور ، وهذا يكون فوق التل الذي برا قاسم بك (هكذا) ويسمى تل العقارب ، وبعد دفن ساري عسكر العام "كلهر" ، وقدام كامل العسكر وأهل البلد الموجودين في المشهد . ثم أفتوا بموت السيد عبد القادر الغزي مذنب أيضا كما ذكر أعلاه ، وكل ما تحكم يده عليه يكون حلال (هكذا) للجمهور الفرنسي ، ثم هذه الفتوى الشرعية (ولا ندرى من أين تكتسب هذه الشرعية !!) تكتب وتوضع فوق البيت الذي يختص (هكذا) بوضع رأسه ، وأيضا أفتوا على محمد الغزي وعبدالله الغزي وأحمد الوالي أن تقطع رؤوسهم وتوضع على نابيت ، وجسمهم يحرق بالنار ، وهذا يصير في الحبل المعين أعلاه ، ويكون ذلك قدام سليمان الحلبي قبل أن يجري فيه شيء

{تابع} .. فكانت اعترافهم في أضيق حدود ، (....) فصلاحة حلية الأزهر تؤكد التربية التنظيمية .. ففسى البداية كان الإنكار التام ثم الاعتراف على النفس ، وعندما ترتفع درجة التعذيب ، وتبلغ قسوته حدا لا يستطيع الجسد أن يتحملة مهما أرادت النفس .. يكون الاعتراف في حدود ما يعلمه المحققون فعلا .. مع الحرص في نفس الوقت ، رغم بشاعة التعذيب ، على سلامة التنظيم ، وسلامة القيادة ، سواء السياسية أو التنظيمية ، وسلامة الشرف من أن تشبه اعترافات غير محدودة لا تهدف إلا إلى إطالة التحقيق وحفظ الحياة .. والعادة في مثل هذه التشكيلات ... أن تعتبر الخلية المعينة ، مهمتها منتهية بمجرد تنفيذ العملية ، فتعترف على نفسها كلون من البطولة وضرب المثل للآخرين ، واعتزازا بما حققته من ناحية ومن ناحية أخرى لخصر خصائر التشكيل الذي تتبعه ، فهي وقد سقطت فعلا في يد السلطة قد انتهى دورها .. وباعترافها لمدى التحقيق ونصره - إلى حد ما - عن التعذيب " [ودخلت الخيل الأزهر ص ٣٤٦-٣٤٧] .

(١) راجع تفاصيل ذلك في عجائب الآثار ٣٨٩-٣٥٨/٢ .

(هكذا ١١١) هذه الشريعة والفتوى لارم أن ينطبعها باللغة التركية والعربية والفرنساوية ، من كل لغة خمسمائة نسخة لكي يرسلوا ويعلقوها في المحلات اللارمة .<sup>(١)</sup>

هذا هو نص الحكم بلغته العربية الركيكة كما وصل إلى الجيرتى وسجله في تاريخه كما هو مع باقى عناصر المحكمة حتى يطلع عليه أديعاء التنوير ( ١١١٢ ) حيث نفذ القوم كل حرف ورد في الحكم على سليمان ورفاقه<sup>(٢)</sup> .

ولعل العبارة الأخيرة الواردة في الحكم هي التغيير الوحيد الذى يميز القرن التاسع عشر عن القرن الرابع عشر .. فخان التتار لم يكن بوسعه أن يصدر حكما أبشع ، ولا أكثر بربرية من هذا الحكم . ولكنه لم يكن بوسعه أن يطبع نصه بثلاث لغات . وهذا المارق التكنولوجى ، لم يكن يهم كثيرا "سليمان الحلبي" الذى سيشاهد ثلاثة من رفاقه تقطع رقابهم ، ثم يحرقون أمام عينه ، أما هو فتحرق يده اليمنى وهو حى ، وتحرق وهى متصلة بجسمه ، يقيد ويوضع فوق الخازوق ، ثم توضع يده اليمنى فوق فحم ملتهب لتشوى وهو ينظر ، ثم يطلب منه أن يهتف ثلاثا بالثورة القانونية التى أدخلها جلادوه فى الشرق الإسلامى المتخلف ! يهتف بحياة "أول محضر تحقيق" .. أول محكمة تشكل على الأسس القانونية الحديثة فى مصر المحروسة ... أول مطبعة تطبع قرار التشكيل به .. أول خازوق ترفسرف عليه راية الثورة الفرنسية !<sup>(٣)</sup> .

وتلاميذ المدرسة الاستعمارية من أمثال "لويس عوض" بهرهم شكل المحاكمة، غير أن ضميرهم لم يهتز لخروج الغزاة فى كل مكان من أرض مصر

(١) عجائب الآثار ٢/ ٣٨٩ .

(٢) انظر تنفيذ الحكم فى المصدر السابق ٢/ ٣٩٠ .

(٣) ودخلت الخيل الأرمه ص ٣٥٠ .

والشام يقتلون النساء والأطفال بلا هوادة ولتنكيلهم بوحشية لا منيس لها في التاريخ المدافع عن أرضه وعرضه على النحر المشار إليه في الحكم<sup>(١)</sup> .

لقد اهتز ضمير "كرستوفر هيرولد" على تحيزه لبني ملته وجلدته ، وهو يصف محرقة "جنكيز خان الفرنسي" التي أعدها للأبطال الشجعان في كتابه "بونابرت في مصر"<sup>(٢)</sup> ، بينما غض هؤلاء الطرف عنها كما لو كانوا أجناب عن مصر لا يمتون إليها ولا إلى أهلها بصلة ، وقد ماتت فيهم المشاعر الإنسانية وذهبت منهم النخوة والرجولة .

### خامسا : التنكيل بالشعب :

وكما نكل الغزاة المحتلون بقيادة الأمة الذين هم أهل الحل والعقد فيها ، فقد نكلوا بالشعب نفسه أشد تنكيل ، فارتكبوا في حقه الفظائع ، إن تعذبا وسجنا ، وإن قتلوا بوحشية لا مثيل لها<sup>(٣)</sup> ، وما كان يمر يوم إلا ويشاهد أبناء مصر هذه المناظر المشعة حتى صار ذلك عندهم أمرا مألوفا .

ففي رسالة بعث بها السفاح "نابليون" إلى الجيرال "زاينوشسك" قومندان المنوفية قال له فيها : " لا بد أن تكون جساءتك تعليماتى لتنظيم مديريتكم (المنوفية) ، يجب أن تعاملوا الترك بمنتهى القسوة ، وإن هنا أقتل كل يوم ثلاثة وأمر بأن يطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة ، وهذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجهوا غايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح" .

(١) راجع تفصيلات الرد على هؤلاء في كتاب : ودخلت الخيل الأزهر تحت عسوان : "الحاكمة" ص ٣٥٩-٣٥١ .

(٢) انظر ص ٣٨١-٣٨٢ .

(٣) راجع تفاصيل التنكيل في كتاب تاريخ الحركة القومية ١/٢٦٥-٢٦٧ . دار المعارف . السادسة . بدون .

وظاهر أن نابليون يقصد من عبارة "الترك" الأهالي ولا يمكن أن يقصد الأتراك العثمانيين ، لأنه في تاريخ هذه الرسالة كان يتودد إليهم كثيرا ويتظاهر بمحبته لسلطان تركيا ، وكلمة ترك كثيرا ما يستعملها الكتاب الفرنسيون للتعبير عن الأهالي المصريين ، وهذا مفهوم من رسالة أخرى لنابليون إلى الجنرال "مينو" قومندان رشيد يقول فيها : " إن الترك لا يمكن إخضاعهم إلا بالقسوة ، وفي كل يوم أمر بقتل خمسة أو ستة في القاهرة ، لقد كنا نتفادى التعرض لهم حتى نزيل عن سمعتنا وصمة الإرهاب ، تلك التهمة التي كانت تسبقنا إلى أذهان الناس ، أما الآن فيجب علينا أن نستعمل الوسائل التي تؤدي إلى إخضاع هؤلاء القوم ، وإخضاعهم معناه تخويفهم . " (١)

وأرسل حملة انتقامية إلى عرب القليوبية . فحرقت خيامهم وبيوتهم . وذبحت رجالهم ذبحا . وقتلت نساءهم وأولادهم . ثم أمر نابليون بأن نحمل رعوس قتلاهم إلى القاهرة . فحمل منها مائتان ، وضعت في "أكياس" ونقلت على ظهور الحمير . ثم أفرغت في شوارع القاهرة ، أمام أهلها ، نكاية بهم وتخويفا . وليروا بعيونهم انتقام نابليون فيخشعوا ، ويخضعوا ، ويدلوا (٢) .

وقد اعترف الجنود والقواد الفرنسيون الذين اشتركوا في الحملة في مذكراتهم ومن خلال رسائلهم التي تبادلوها فيما بينهم ، أو بينهم وبين ذويهم بالفظائع التي ارتكبوها في حق الشعب المسلم .

يقول الجاويش "فرانسوا" : " إن قرية رفضت إمداد الفرنسيين بالبضائع التي طلبوها ، فضرب أهلها بحد السيف ، وأحرقت بالنار ، وذبح وأحرق (٩٠٠)

(١) تاريخ الحركة القومية ٢٦٧/١ ، بونابرت في مصر ، هيرولد ص ١٥٣ .

(٢) مصر في القرن الثامن عشر ص ٥٩-٦٠ .

رجل وامرأة وطفل ، ليكونوا عبرة لشعب ممجى نصف متوحش (!!)“<sup>(١)</sup> .

هكذا ينظر إلينا رجال التنوير "شعب ممجى نصف متوحش" !! ومن ثم يجب التنكيل بنا حين ندافع عن كرامتنا وديارنا ؛ لأننا تجاوزنا الحد في وجه حملة الطهارة والعفة والرحمة !!! .

وكتب الجنرال "برتييه" إلى الجنرال "دوجا" قومندان مديرية المنصورة يخبره بحوادث ثورة القاهرة الأولى ، فكان مما قاله : " لقد نكلنا بالثائرين في مذبحه وهية فسادت السكينة مساء أمس ، وقد قتلنا منهم ألفين أو ثلاثة آلاف . " . وأمر نابليون الجنرال "برتييه" بتاريخ (٢٣) أكتوبر من عام الثورة (١٧٩٨م) أن يصدر تعليماته إلى قومندان المدينة " بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أخذوا معهم أسلحة ، وعليكم إرسال الجثث في هذه الليلة إلى شاطئ النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة وإغراقها في النهر . " .

كما أرسل نابليون رسالة إلى الجنرال "رينيه" قومندان الشرقية يقول فيها : " عادت السكينة إلى القاهرة ، وفقد الثائرون نحو ألفي قتيل ، وفي كل ليلة تقطع رؤوس نحو ثلاثين من الرجال وكثير من زعماء الأهالي ، وأظن أن هذا سيكون درساً قاسياً لهم . " .<sup>(٢)</sup>

ولم تأخذهم رحمة حتى بالنساء حيث لم يفرقوا في تنكيلهم بين رجل وامرأة فقتلوا كثيراً منهم ، وهذا من أفظع ما سمع في التنكيل وسفك الدماء آنذاك . قال المسيو "بوريرين" سكرتير نابليون الخاص في مذكراته : " سيق المسجونون إلى القلعة وكنت أتولى في مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام اثني عشر سجينا

(١) بولابر في مصر . هيرولد ص ١٠٥ .

(٢) تاريخ الحركة القومية ٢٨٣/١ .

كل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع في زكائب وتغرق في النيل ، واستمر ذلك ليلالى عديدة ، وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهم أحكام الإعدام الليلية .<sup>(١)</sup> .

وهكذا نرى أن الدور "التحريري" الذي ينسبه مؤرخو المدرسة الاستعمارية إلى جيش الاحتلال الفرنسي بالنسبة للمرأة المصرية ، لم يكن يشمل كفاحها من أجل التحرر الوطني ولا حتى من أجل تخفيف الضرائب . بل هو لا يتعدى حصرها ، وإلا لرحب الحكم الثوري "بانطلاق" المرأة من "عقالها" واشتراكها في الثورة .

وإذا فهمنا دوافع جيش الاحتلال والسلطة الحاكمة في إعدام النساء اللوات .. فأى عذر وأى منطق يخفى عار من يتصدون اليوم لتزوير تاريخ هذا الشعب فيجعلون من مظاهرة تطالب بفتح الحمامات ، أو الخروج مع العسكر الفرنسيين في ثياب خليعة ، وتهتك خلقى ، بداية حركة تحرير المرأة ! ويغفلون عن عمد ، اشتراك المرأة المصرية في أعمال المقاومة في الريف المصرى ، واشتراكها في قيادة الثورة بالقاهرة ، على نحو دفعت معه حياتها ثمناً لهذا الاشتراك . فأعدمت قيادة الثائرات ، بسحد السناكى في القلعة ، أو أغرقن في النيل ! .

أين يمكن أن يبحث المؤرخ الشريف عن قيادة الحركة النسائية .. وطلائع تحرير المرأة .. في سجن القلعة بين النساء الثائرات ينتظرن الإعدام بسناكى جيش الاحتلال .. دون أن يسجل تاريخ الحملة الفرنسية حادثة انهيار واحدة للمجاهدات الباسلات .. أم يبحث عن هذه القيادة وهذه الطلائع في حمامير أشباه "برطلمين" ، وفي فراش جنود الاحتلال يقودهن أمثال "يعقوب" ١٩<sup>(٢)</sup> وسسيأتى مزيد بيان لهذا الموضوع بعد قليل .

(١) المرجع السابق ٢٨٤/١ .

(٢) ودخلت الخيل الأزهر ص ٢٢٥-٢٢٦ .

وكما صنع نابليون في ثورة القاهرة الأولى صنع خلفه كليبر بالأهالي العزل في ثورة القاهرة الثانية ، فقد أسرف هو وجنوده في ارتكاب الفظائع لإخماد الثورة ، ولجئوا إلى الطريقة الوحشية التي اتبعوها ، في كثير من المواطن ، وهي إضرام النار في الأحياء الأهلة بالسكان وإرسالها على المدينة وأهلها موتاً أحمر - كما يذكر الرافعي - فأحدثت الحرائق تحريبا فظيحا في القاهرة ، واحتترقت أحياء برمتها، وتهدمت بيوت عامرة ، ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها<sup>(١)</sup> .

لقد نجح الجاويش "فرانسوا" في التعرف على حقائق الحياة في مصر ، من صيدلي إيطالي كان يقيم بها ، قال له في حديث ودي صريح : "إن الجميع خائفون ، ولا يدور حديثهم إلا عن المتاعب والفقر المنتشر ، والسرقات والقتل ، فليس هنالك أمس : لا على الحياة ، ولا على الأملاك . إنهم يسفكون دم الإنسان كأنه ثور . ورجال البوليس في جولاتهم بالليل والنهار يحاكمون ويحكمون ، وينفذون أحكامهم فوراً دون استئناف . وهم يسرون مصطحبين الجلادين ، وما إن يصدر الأمر حتى يسقط رأس شيطان مسكين . أما الموقف في أمر النساء فسي جدا ."<sup>(٢)</sup>

وما فعلوه بأبناء مصر قيادة وشعبا ، فعلوه بأبناء الشام كذلك مما يدل على أن التنكيل بالمسلمين كان غرضاً للغزاة وإن لم يقاوموهم .

فعندما جرد نابليون حملة من مصر إلى الشام ، واستسلمت له حامية "يافسا" البالغ عددها ثلاثة آلاف جندي ، وأعطاهم الأمان على أنفسهم ، قتلهم جميعا بلا هوادة<sup>(٣)</sup> .

(١) تاريخ الحركة القومية ١٧٣/٢ .

(٢) بونايرت في مصر ص ١٦٩ .

(٣) تاريخ الحركة القومية ٣٧/٢ ، وانظر تاريخ الدولة العلية ص ١٨٢ موسوعة تاريخ مصر ، أحمد حسين ٨٩٥/٣ . دار الشعب ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م ، التاريخ الإسلامي . محمود شاكر ٤٧٦/٨ ، المكتب {تبع}

وقد تأثر بعض الجنود لهذا التكيل الرحشى بالأبرياء فكتب إلى أمه يخبرها بالرسالة التنويرية للجيش الاحتلال (!!) يقول لها : " إن قيام الجنود الحسانقين ، بعد اقتحام مدينة ، والاستيلاء عليها عنوة ، بأعمال السلب والنهب والحرق والتقتيل كيفما اتفق ، أمر تقتضيه قوانين الحرب . والإنسانية تسدل قناعا على هذه الفظائع . ولكن صدور الأمر بعد انقضاء يومين أو ثلاثة على السهجوم ، وبعد أن تهدأ سورة الغضب ، في وحشية هائلة ، بقتل ( ٣٠٠٠ ) رجل استسلموا لنا بسلامة نية ! تلك جريمة بشعة ستشجبها الأجيال القادمة ما في ذلك ريب ... إن نحو ( ٣٠٠٠ ) رجل ألقوا سلاحهم ، فسيقوا على الفور إلى معسكرنا وفصل عنهم بأمر القائد الأعلى المصريون والمغاربة والأترك . وفي صباح اليوم التالى أخذ المغاربة جميعهم إلى شاطئ البحر وبدأت كتيبتان في رميهم بالرصاص . وكان أملهم الوحيد في النجاة هو أن يلقوا بأنفسهم في البحر ، فلم يترددوا ، وحاولوا كلهم السهرب سباحة ، فضربوا بالرصاص على مهل ، ولم تخض لحظة حتى اصطبغ ماء البحر بدمائهم . وانتشرت جثثهم على سطحه . وأسعد الحظ نفرا قليلا فوصلوا إلى بعض الصخور ولكن الأوامر صدرت للجنود باقتفاء أثرهم في قوارب والإجهاز عليهم . أما وقد تم إعدام هؤلاء الرجال فقد رجونا صادقين ألا تتكرر هذه الجريمة وأن يعفى الأسرى الباقون من القتل .. ولكن سرعان ما غاب رجائنا حين اقتيد ( ١٢٠٠ ) مدفعى تركى في اليوم التالى ليعدموا ، وكانوا قد جوعوا يومين أمام خيمة الجنرال بونايرت . وصدرت التعليمات المشددة للجنود ألا يسرفوا في الذخيرة ، فبلغت بسهم الوحشية أن أعملوا فيهم الطعن بالسنكى .. وقد وجدنا بين الضحايا أطفالا كثيرين تشبوا - وهم يموتون - بآبائهم . وسيعلم هذا المثال أعداءنا أنهم لا يستطيعون الركون إلى صدق نية الفرنسيين ، وسيسبق



دم هؤلاء الآلاف الثلاثة الضحايا على رؤوسنا إن عاجلا أو آجلا“<sup>(١)</sup> .

الحق أن هيرولد اهتز ضميره أمام هذه المذبحة الوحشية وهاله — كما هال هذا الجندي — ما فعله الجيش بأمر نابليون بالنساء والأطفال والشيوخ والأسرى المسلمين في هذه المدينة الآمنة الوديدة<sup>(٢)</sup> .

### **سادسا : استنزاف خيرات البلاد بالضرائب الباهظة وغيرها :**

نظر الفرنسيون إلى مصر على أنها البقرة الحلوب التي لا يتوقف درها ، فكان من أغراض الحملة التي جردوها إليها استنزاف خيراتها بكل الوسائل وإثقال كاهل الشعب بالضرائب الباهظة التي فرضوها عليه ، بما لم يكن معهودا من المماليك الذين ادعى نابليون أنه جاء يخلص المصريين من استغلالهم .

إن الراقعي الذي تحامل على المماليك وصب عليهم جام غضبه ، واعسيرهم غرباء على مصر حتى يؤكد الحركة الوطنية المفتعلة من الشعب ضدهم ! ، إنه مع ذلك وصف حالة مصر الاقتصادية والزراعية والصناعية تحت حكم نابليون وخليفته فرثي لها .

يقول : ” يتبين من كل ما تقدم أن حالة مصر الاقتصادية والمالية قد ساءت على عهد الحملة الفرنسية ، وتقهقرت الزراعة ، وكسدت الصناعة ، وهارت التجارة ، وبالرغم من زيادة الضرائب والإتاوات والمصادرات فقد نقص دخل الحكومة عما كان قبل الحملة ، وعانت البلاد من كل ذلك أشد ما يمكن تصوره من الضيق والفاقة ، وأخذ الضنك يشتد بالناس يوما بعد يوم . وابتدع الفرنسيون

(١) بوناپرت في مصر ص ٢٩٦-٢٩٢ .

(٢) انظر المصدر السابق ص ٢٨٨-٢٩١ .

تاوات وغرامات جديدة في عهد كليبر ومينو . “ (١) .

ويقول في موضع آخر مبينا مدى الظلم والاضطهاد الذى عانى منه الشعب على يد كليبر خاصة بعد ثورة القاهرة الثانية : ” وقد أسرف الفرنسيون في إرهاب سكان القاهرة وإذلالهم ، واعتقلوا الكثيرين منهم لإكراههم على دفع نصيبهم في الغرامة ، وفتشوا جميع المنازل بحجة البحث عن السلاح ، وتفتنوا في ضروب القهر والنكال ، واشتد الضيق بالناس مما لاقوه من المصائب والأهوال ، فخربت بيوت عامرة . وخرج كثير من الناس عن أموالهم وباعوا متاعهم . ومات كثير منهم في السجون . وهاجر من استطاع الهجرة فرارا من الظلم والاضطهاد . “ (٢) .

وأشار إلى وصف الجيرتى لهذه الحلقة من حلقات المآسى المالية التى أنزلها الفرنسيون بالمصريين والتى يقول الجيرتى عنها : ” وبثوا الأعوان بطلب الناس وحبسهم وضربهم فدهى الناس بهذه النازلة التى لم يصابوا بمثليها ولا ما يقاربها .

ومضى عيد النحر ولم يلتفت إليه أحد ، بل ولم يشعروا به ، ونزل بهم من البلاء والذل ما لا يوصف ، فإن أحد الناس غنيا كان أو فقيرا لا بد وأن يكون من ذوى الصنائع أو الحرف فيلزمه دفع ما وزع عليه في حرفته أو في حرفتيه وأجسرة داره أيضا سنة كاملة . فكان يأتى على الشخص غرامتان أو ثلاثة ونحو ذلك . وفرغت الدراهم من عند الناس واحتاج كل إلى القرض فلم يجد الدائن من يدينه لشغل كل فرد بشأنه ومصيبته . فلزمهم بيع المتاع فلم يوجد من يشتري . وإذا أعطوهم ذلك لا يقبلونه . فضاق خناق الناس وتمنوا الموت فلم يجدوه ، ثم وقع

(١) تاريخ الحركة القومية ١٢٤/٢ . وانظر تبشير النهضة في العالم الإسلامى ص ٤٩-٥٠ .

(٢) المرجع السابق ١٧٨/٢ .

الترجى فى قبول المصاغات والفضيات ، فأحضر الناس ما عندهم ، فيقود ساجس الأثمان ، وأما أثاثات البيوت من فرش ونحاس وملبوس فلا يوجد من يأحده وأمسروا بجمع البغال ، ومنعوا المسلمين من ركوبها مطلقا سوى خمسة أنفار من المسلمين وهم : الشرقاوى والمهدى والفيومى والأمير وابن محرم والنصارى المسترجمين وخلافهم لا حرج عليهم . وفى كل وقت وحين يشتد الطلب وتنبث المعينون (هكذا) والعسكر فى طلب الناس ، وهجم الدور ، وجرجرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر وبهدلتهم وحبسهم وضربهم ، والذي لم يجدوه لكرنسه فر وهرب يقبضون على قريه أو حريمه أو ينهبون داره . فإن لم يجدوا شيئا ردوا غرامته على أبناء جنسه وأهل حرفته “ .

ثم ذكر انتهاز النصارى الفرصة وتطاولهم على المسلمين بالسب والضرب والتقول على الإسلام .. وخروج الناس هروبا مما أصابهم إلى القرى والأرياف لكنهم كانوا يتحولون عن مصيبة ليواجهوا بمصيبة ربما كانت أشد . فقال : ” ثم إن أكثر الفارين رجع إلى مصر لضيق القرى وعدم ما يتعيشون به فيها ، وانزعاج الريف بقطاع الطريق والعرب والمناسر بالليل والنهار ، والقتل فيما بينهم ، وتعدي القوى على الضعيف ، واستمرت الطرق محفرة والأسواق معفرة والخوانيت مقفولة والعقول محبولة والنفوس مطبوقة والغرامات نازلة والأرزاق عاطلة والمطالب عظيمة والمصائب عميمة والعكوسات مقصودة والشفاعات مردودة “ .

ثم ختم كلامه بقوله : ” وبالجملة فالأمر عظيم والخطب جسيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد. “ (١) .

يعلق الرافعى على هذا الكلام الذى يقطر ألما وحزنا على ما أصاب البلاد والعباد على أيدي طغاة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين فيقول :  
 ” وقيتنا أنه قلما توجد في تاريخ الثورات فجائع تشبهها أو تدانيها في ويلاتها وخطوبها وأهوالها. “<sup>(١)</sup> .

ترى ، ماذا يقول أدعياء التنوير فيما سجله الجيرتى الدقيق في عباراته والرافعى الذى لا يشك أحد في وطنيته - التى تجره أحيانا إلى حد التطرف - من هذه المظالم المفجعة ١٩ .

**سابعاً : تربية جيل من بدى جلدتنا يقوم بالدور الرئيسى فى ديار الإسلام :**  
 ومما سعى إليه رجال الحملة تحقيقاً لرغبة الاستشراق اختيار طائفة من المسلمين بصقات معينة تناسب الدور الذى سيلعبونه لصالح الغرب في ديارنسا ، على أن يرسل هؤلاء إلى فرنسا لتعليمهم على طريقتهم وتعويدهم عوائدهم ، ويكونون طليعة الأجيال التى تأتى فيما بعد لتكون قلوبهم وعقولهم وتصرفاتهم غربية يدعون إليها بأعمالهم وأقوالهم ، وربما كانوا غربيين أكثر من الغربيين أنفسهم على النحر الذى نرى أمثالهم عليه الآن .

وقد يشغل هذا الأمر نابليون كثيراً حتى إنه حين لم يستطع تنفيذه في المدة التى مكثها بمصر ، كتب إلى "كليبر" من بعده ، وكان مما كتبه له : ” ستظهر السفن الحربية الفرنسية بلا ريب في هذا الشتاء أمام الإسكندرية أو البرلس أو دمياط ، يجب أن تبنى برجاً في البرلس . “

ويقول : ” اجتهد في جمع ( ٥٠٠ ) أو ( ٦٠٠ ) شخصا من الممالك ، حتى متى لاحت السفن الفرنسية تقبض عليهم في القاهرة أو الأرياف ، وتسفرهم إلى فرنسا .

(١) تاريخ الحركة القومية ١٨٠/٢ .

وإذا لم تجد عددا كافيا من المماليك فاستعص عنهم برهائن من العرب ومشسايخ البلدان ، فإذا ما وصل هؤلاء إلى فرنسا يحجرون مدة سنة أو سنتين ، يشاهدون في أثناءها عظمة الأمة الفرنسية ، ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا ، ولما يعودون إلى مصر يكون لنا منهم حزب يضم إليه غيرهم .“ .

ويقول في الرسالة نفسها : ” كنت قد طلبت مرارا جوقة تمثيلية ، وسأهتم اهتماما خاصا بإرسالها لك ، لأنها ضرورية للحيش ، وللبداء في تغيير تقاليد البلاد .“ [١] .

إن هذا الذى غرض إليه نابليون من ”كلير“ ، باختيار هذا العدد الكبير وإرساله إلى فرنسا وإبقائه هناك زمنا يكفى لإجراء عملية غسل مخ كاملة يعود بعدها المسلم متكررا لبلاده ، قالبا ”ظهر المحن“ لدينه وحضارته ، وإذا لم ينجح نابليون في تحقيق هذا الغرض إبان الحملة ، فقد نجح الفرنسيون فيه فيما بعد ابتداء من عهد محمد على ، وصار للقوم بل للغرب أتباع يدعون إليه بقسوة وإخلاص الآن في ديارنا، والواقع خير مثال على ذلك .

### ثامنا : تفتيت الوحدة الوطنية :

ومما قصد إليه الغزاة الفرنسيون محاولتهم الخبيثة بتفتيت الوحدة الوطنية في المجتمع الأمن ، وتمزيق أواصر الأخوة الإسلامية بين المسلمين .

تمثل ذلك في إثارة الفتنة الطائفية التي كانت نائمة حيث مكثوا للنصارى

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ١٥٨-١٥٩ .

وقد استدرك العلامة محمود شاكر على الراجح تدخله في النص المترجم عن الفرنسية إلى العربية بشروح من عنده - كما ذكر هو - [ انظر تاريخ الحركة القومية ١٠٣-٩٩/٢ ] الأمر الذى أدى إلى فساد المعنى وتفسير نص الترجمة الصحيح الذى أورده الأستاذ أحمد حافظ عوض في كتابه : ”فتح مصر الحديث“ المؤلف عام ١٩٢٥م ، أى قبل أن يكتب الراجح كتابه بأربعة أعوام . [ انظر رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ١٥٩-١٦٣ ]

وميزوهم على المسلمين في كل شيء ، وأعانوهم على التطاول عليهم ، بل وجندوا أقواما منهم في صفوفهم لمحاربة أبناء الوطن الذين يروهم وأحسنوا إليهم ، وتركوهم آمنين على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم .. وقد استجاب لهم — كما سبق — العميل الخائن "يعقوب" وبمجموعة من النصاري الذين شكل بسهم كتيبة كان هو قائدها ، وأطلق الفرنسيون عليه لقب "الجنرال" لندالتسه وخيسته وتنكره للمعروف حتى كان هو وكتيبته بلاء على المسلمين .

وكذلك الخسيس "بارتلمى" الذى يقول عنه هيرولد : "ومن أبرز هؤلاء وألفتهم للنظر أيام الاحتلال الفرنسى مغامر رومى مسيحي يسمى بارتلمى أو بارتلمير عينه بونايرت "كتخدا مستحقظان" القاهرة (أى نائب المحافظة) وكان هذا الصابط الزاهى المظهر والمسلك يقود سرية قوامها مائة من الأروام والجزائريين والمغاربة والمتوحشين . وكان فارغ القامة ، لا ينسى الناظر مظهره وهو يخرج على رأس أتباعه الأوغاد في عمامة بيضاء ضخمة تظهر بشرته البرونزية ، وعيناه تلمعان ، وعلى شفتيه ابتسامة يجمد لها الدم في العروق ، وقد ارتدى ثوبه اليونانى الموشى بالقصب ، وحزاما أحمر ، وسراويل ضخمة ، ومعطفا تعلوه رمانتان مما يضعهما الكولونيل على كتفيه . وكان زوجته العملاقة الرهيبة تركب أحيانا إلى جواره . وكان بارتلمى يحب العراق ، لأنه يتيح له إظهار شجاعته والتباهى بشيابه ، ولكن أحب الأشياء إلى قلبه قطع الرقاب بالجمل . روى أنه إذا لم يجد من البدو المتمردين من يحمل رءوسهم إلى القاهرة تذكارا كان يعزى نفسه برءوس بعض الفلاحين العائري الحظ الذين يصادفهم في عودته للمدينة . وقد قدم للجنرال ديوى مرة زكية بأكملها مملوءة برءوس البدو بينما كان هو وضيوفه يتناولون طعام الغداء ، وقد آلمه أنه نفص عليهم طعامهم . " (١)

(١) بونايرت في مصر ص ١٥٦-١٥٧ .

لقد تسبب الفرنسيون بسهولة بهذا الوضع في إضرار نار بين الطرفين كانت كامنة . يقول الجبرتي : " وتطاولت التنصاري من القبط ، والنصارى الشوام على المسلمين بالسب والضرب ، ونالوا منهم أغراضهم ، وأظهروا حقدهم ، ولم يقوا للصليح مكانا ، وصرخوا بانقضاء ملة المسلمين ، وأيام الموحدين . " (١)

وكرت شكاوى المسلمين من هذه التصرفات الشائنة ، الأمر الذى اضطر نابليون إلى أن يطالبهم بالتخفيف منها . وكتب إلى كليبر يقول له : " مهما فعلت بالمسيحيين فسيظلون دائما أصدقاءنا . فيجب أن تمنعهم من أن يشتطوا في وقاحتهم . " (٢)

ومن عجب أن يأتى بعد كل هذا تلميذ المدرسة الاستعمارية "لويس عوض" فيزور في التاريخ ويقلب الحقائق مدعيا أن يعقوب العميل رائد القومية العربية !!

وقد فند الأستاذ محمد جلال كشك هذا الادعاء الكاذب ، ذاكرا حقيقة الخللن يعقوب وجرائمه التى خالف بسبها موقف الكنيسة الرسمى ، وسرد نماذج على ما ذهب إليه من مصادر الأصيل ، فليراجعها من شاء في كتابه القيسم "ودخلت الخيل الأزهر" ، في أكثر من موضع ولاسيما الفصل الثامن (٣) .

كما عمل الفرنسيون على توظيف اليهود في خدمتهم ، وبالفعل تعاون معهم يهود مصر ، فكانوا مترجمين لسهم ، واشتركوا في حرق ونهب كتب العلم بالأزهر (٤) .

وحين اتجه نابليون إلى "عكا" عام (١٧٩٩م) أصدر نداءه إلى اليهود أثناء

(١) عجائب الآثار ٣٥٠/٢ .

(٢) بونابرت في مصر ص ١٥٧

(٣) ص ٢٧٦-٢٩١ ، ص ٣٢٩-٣٤١ ، ص ٣٨٥-٤٢٠ .

(٤) انظر ودخلت الخيل الأزهر ص ٢٢٢ .

حصارها ، طالبا منهم معارنته لقاء ثمكيهم من أرض فلسطين ، وعلى هذا فالحملة الفرنسية تعد طليعة التمكين للصهاينة في بلادنا .

وإنما لتفتت الوحدة الوطنية حتى يمكن الصيد في الماء العكر تسعى الغز المحتلون لإيجاد طائفة من أبناء الوطن همها النفاق على حساب الدين والوطن وطائفة من البلطجية الذين يسعون في الأرض بالفساد . يقول الجيرتي : ” وانض إليهم (أى إلى الفرنسيين) الأسافل من القبط ، والأراذل من المنسافقين ، وتقرب إليهم بما يستميلون قلوبهم به ، وما يستجلبونه لهم مسن المنافع والمظالم وأجهدوا أنفسهم في التشفى من بعضهم وما يوجب الحق والتحاسد الكامن قلوبهم ، إلى غير ذلك مما يتعذر ضبطه .“ (١)

لقد كان الجيرتي يقسم أهل مصر إلى الأمراء وأولاد البلد أو أولاد العرب . المشايخ ، ومساكين الناس ، والزعران ، والحرافيش ، والفلاحين ، والأعراب ولكن حكومة الثورة الفرنسية قسمتنا إلى : مسلمين ونصارى ويهود .

### تاسعا : القضاء على المظاهر العمرانية الجميلة :

ومن المأسى التي تعرض المصريون لها قضاء رجال التنوير من الغزاة الفرنسيين على المظاهر العمرانية ، وتشويه معالم الطبيعة الجميلة التي حسي الله بها أرد الكنانة والتي قال عنها الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - كما سبق في التمهيد : ” ومن أراد أن يذكر الفردوس ، أو ينظر إلى مثلها في الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها ، وتزهر ثمارها “ .

أحال رجال الحملة هذا المنظر البديع الذي تمتعت به مصر على مدى تاريخ الطويل إلى خراب ، وقد سبق منذ قليل ما قاله الجيرتي عن التدمير والتخريب

(١) عجائب الآثار ٤٩٧/٢ .



والنوازل الهائلة التي أصابت أهل مصر حين بدأ التاريخ لسنة الاحتلال الفرنسي (١٢١٣هـ) لها .

وظلت أيدي التخريب والتشويه تعمل في مصر عملها حتى جلاء المحتلين الفرنسيين عنها .

ذكر الجبرتي حوادث سنة (١٢١٥هـ) وفي آخرها أفاض في التخريب والتدمير والتشويه الذي أحدثه رجال "جنكيز خان وهولاكو" العصر الحديث فقال: "وانقضت هذه السنة وما حصل فيها . فمنها توالى الهدم والخراب ، وتغيير المعالم ، وتنويع المظالم . وعم الخراب خطة الحسينية خارج باب الفتوح والخروبي ، فهدموا تلك الأخطاط والجهات والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والزوايا والتكايا ، وبركة جناق وما بها من الدور والقصور المزخرفة ، وجامع الجنبلاطية العظيم بباب النصر ، وما كان به من القباب العظام المعقودة من الحجر المنحوت ، المربعة الأركان ، الشبيهة بالأهرام ، والمنارة العظيمة ذات السهلين ، واتصل هدم خارج باب النصر بخارج باب الفتوح وباب القوس إلى باب الحديد حتى بقى ذلك كله خرابا متصلا واحدا ."<sup>(١)</sup>

وقال : " وهدموا أعالي المدرسة النظامية ومنارتها ، وكافت في غاية مسن الحسن ، وجعلوها قلعة ، ونبشوا ما بها من القبور فوجدوا الموتى في توايت من الخشب ، فظنوا داخلها دراهم ، فكسروا بعضها ، فوجدوا بسها عظام الموتى ، فأنزلوا تلك التوايت وألقوها إلى خارج ."<sup>(٢)</sup>

إلى أن يقول : " ومنها توالى خراب بركة الغيل وخصوصا بيوت الأمراء التي

(١) عجائب الآثار ٢/٤٣٢ .

(٢) عجائب الآثار ٢/٤٣٢-٤٣٣ .

كانت بها ، وأخذوا أخشابها لعمارة القلاع ووقود النيران والبيع ، وكذلك ما كان لها من الرصاص والحديد والرخام ، وكانت هذه البركة من جملة محاسن مصر ، وفيها يقول أبو سعيد الأندلسي - وقد ذكر القاهرة - : وأعجبتني في ظاهرها بركة الفيل ؛ لأنها دائرة كاليدور ، والمناظر فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، ويسرج أصحاب المناظر على قدر همهم وقدرتهم ، فيكون بذلك لها منظر عجيب .<sup>(١)</sup>

ثم شرع في ذكر المساجد التي هدمها الغزاة وخربوها ، وهي تمثل بروعة بنائها وجمالها وجه مصر الحضاري المشرق ، وقد سبق بيان ذلك .

إلى أن قال عن صنيع القوم ببساتين مصر المزدانة بالنخيل والأشجار والأزهار كما لو كانت فردوس الدنيا - على نحو ما عبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - : " ومنها قطعهم الأشجار والنخيل من جميع البساتين والجنان الكائنة بمصر ، وبولاق ، ومصر القديمة ، والروضة ، وجهة قصر العيني ، وخارج الحسينية ، وبساتين بركة الرطلي ، وأرض الطبالة ، وبساتين الخليج ، بل وجميع القطر المصري كالشرقية والغربية والمنوفية ورشيد ودمياط ، كل ذلك لاحتياجات عمل القلاع وتحصين الأسوار في جميع الجهات ، وعمل العجل والعربات والمتاريس ووقود النار ، وكذلك المراكب والسفن وأخذ أخشابها أيضا ، مع شدة الاحتياج إليها ، وعدم إنشاء الناس سفنا جديدة لفقرهم ، وعدم الخشب والزفت والقار والحديد وباقي اللوازم ، حتى إنهم حال حلولهم الديار المصرية وسكنهم بالأزبكية كسروا جميع القنج والأغربة التي كانت موجودة تحت بيوت الأعيان بقصد التنزه ، وكذلك ما كان ببركة الفيل . وبسبب ذلك شحت البضائع وغلّت الأسعار ، وتعطلت الأسباب ، وضائق المعاش ،

(١) المصدر نفسه ٤٣٤/٢ - ٤٣٥ .

وتضاعفت أجرة حمل التجارات في السفن لقلتها .<sup>(١)</sup>

إلى آخر ما أفاض فيه الجبرتي من الهدم والتخريب الذي امتد إلى كل مكان بأرض مصر على أيدي القوم مما يدل دلالة واضحة لا ريب فيها على أنهم ما جاعوا إلا لمصالحهم واستتراف خيراتنا والقضاء على معالم حضارتنا ومظاهر الجمال في مصر .

وقد تحرك ضمير بعض الفرنسيين الذين صاحبوا الحملة ، فحزنوا على الجمال الذي ضيع إخوانهم معاملة بمصر ، منهم المسيو "جالان" الذي يقول : " في ١٥ فلوريال<sup>(٢)</sup> رجعت إلى القاهرة ، واضطرت أن أبحث لي عن منزل آوى إليّ في ميدان الأزيكية بدل المنزل الذي كنت أسكنه والتهمة النيران ، وقد لاحظت أن الحصار<sup>(٣)</sup> أضر بالقاهرة أكثر مما كنت أتصور ، فقد عم الخراب أحياء بأكملها ، وتمثل لنا شبحه المخيف في الأزيكية ، وأثرت في نفسى صورته المفزعة ، فليس في الإمكان أن نخطو خطوة إلا على كتبان من الخرائب والأتربة ، وكانت رائحة العفونة تبعث من الرمم المدفونة تحت الردم ، وزاد هذا المنظر قضاة أن الجنود - مدفوعين بفكرة النهب - كانوا ينيشون الجثث من تحت الأنقاض والخرائب ، فكلما أظهروا جثة زاد المنظر هولاً وفظاعة ."<sup>(٤)</sup>

ماذا يقول أدعياء التنوير في بلادنا عما أحدثته الغزاة الفرنسيون بأرض الكنيسة من وحشية وخراب وتدمير ١١٢

(١) المصدر نفسه ٤٣٨/٢ .

(٢) يوافق ٥ مايو سنة ١٨٠٠ م .

(٣) حصار ثورة القاهرة الثانية .

(٤) تاريخ الحركة القومية ١٧٤/٢ .

### عاشرا : السعي لنشر البدع والمنكرات :

ومما غرض إليه رجال حملة التنوير (١١) تجهيل الشعب المصري لا تعليمه ؛ إلهاء له عن عظام الأمور ، وذلك تم بالمساعدة على نشر البدع والمنكرات في المجتمع وإحياء ما اندرس منها ، فالجبرتي - على سبيل المثال - في أحداث سنة (١٢١٤هـ/١٧٩٩م) نجده يتحدث عن بدع الناس وخرافاتهم المنافية للدين والعلم حول قبر "السيد على البكري" المدفون بجامع الشرايبي بالأزبكية ، وإقامة الموالد له هناك بترخيص من الفرنسيين زمن احتلالهم لمصر بعد أن درس كسل ذلك . يقول : " فلما فتح أمر الموالد والجمعيات ، ورخص الفرنسيون ذلك للناس لما رأوا فيه من الخروج عن الشرائع ، واجتماع النساء ، واتباع الشهوات ، والتلاهي وفعل المحرمات ، أعيد هذا المولد مع جملة ما أعيد . " (١)

(١) ٣٠٦/٢ .

قال الجبرتي عن السيد على البكري هذا : " أنه كان رجلا من البله ، وكان يمشي بالأسواق عرباها مكشوف الرأس والسوءتين غالبا ، وله أخ صاحب دهاء ومكر لا يلتزم به ، واستمر على ذلك مدة سنين ، ثم بدا لأخيه فيه أمر لما رأى من ميل الناس لأخيه واعتقادهم فيه كما هي عادة أهل مصر في أمثاله ، فحجر عليه وسعه من الخروج من البيت ، وألبسه ثيابا وأظهر للناس أنه أدل له بذلك ، وأنه تولى القطبانية ونحو ذلك فأقلت الرجال والنساء على زيارته والتبرك به وسأع ألقاظه والإنصات إلى تخليطاته ، وتأويلها بما في نفوسهم ، وطقق أعصوه المذكور يرغبهم ويثب بهم في كراماته ، وأنه يطلع على خطرات القلوب والمغيبات ، ويطلق بما في النفوس ، فاهمكروا على التردد إليه وقد بعصهم بعضا ، وأقبلوا عليه بالهدايا والنفور والإمدادات الراسعة من كل شئ وخصوصا من نساء الأمراء والأكابر ، وراج حال أخيه ، وثقت سلطته ، وصادت شبكته ، وسمن الشيخ مسن كثرة الأكل والدسومة والفراغ والراحة حتى صار مثل أبو العظيم ، فلم يزل على ذلك إلى أن مات في سنة سبع بعد المائتين - أي عام ١٢٠٧هـ - كما تقدم ، فدفنوه بمعرفة أخيه في قطعة حجر عليها من هذا المسجد من غير صلاة ولا مانع ، وعمل عليه مقصورة ومقاما ، وواظب عنده بالمقرنين والمداحين وأرباب الأثاير والمتشددين بذكر كراماته وأوصافه في قصائدهم ومدحهم ونحو ذلك . ويتواجدون ويتصارحون ويعرضون وجوههم على شبابه واعتابه ، ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ، ويضعونه في أعينهم .. " ٣٠٦-٣٠٥/٢ .

كما تكلم "هيرولد" عن المولد النبوى ، وكيف انتهز نابليون الفرصة لتبليس على المسلمين ، فأصدر أمره بالاحتفال به وكان قد توقف بسبب الحملة ، فكانت فرصة أيضا لسفلة الناس وغوغاتهم يحيون من خلالها البدع والمنكرات والخرافات التي استراح المجتمع من شرورها . يقول هيرولد : "وكانت الاحتفالات بالمولد النبوى ستبدأ في ليلة ٢٠ أغسطس . وقد أقيمت بأمر بونايرت بعد أن قرر الزعماء الدينيون العدول عن الاحتفالات العامة في ذلك العام بسبب "تعطيل الأمور وتوقف الأحوال" وبلغ الضجيج والفوضى غايتها مدى ثلاثة أيام وثلاث ليال ، وتحولت شوارع القاهرة إلى سوق ليلية ، بينما سار الألاف في مواكب يحملون المشاعل و الشموع الكبيرة وينشدون "أغاني كلها نشاز ، ترافقها موسيقى أكثر نشازا" (على حد قول الميجر ديتروا) "ويتصايحون ويزعقون ويحدثون ضحيجا شنيعا" وفي ٢٣ أغسطس بلغت هذه الأفراح ذروتها . يقول ديتروا في يوميته : "إن الميادين العامة حافلة بالمعارض والفرج الصغيرة - فترى فيها الدببة والقردة المدربة ، والمغنين والمغنيات ينشدون أدوارا يجاوبهم فيها آخرون ، والنسوة يغنين الأشعار ، والحواة يأمرن الثعابين فتختفى ، والأطفال يرقصون رقصات غريبة في الفجور .. وظهر الدراويش عند المساء : والشعب يحل هؤلاء المتعصبين الذين يطلقون شعورهم ويسرون عراة تقريبا .. واجتمع الأتقياء في حلقات يجلس فيها الرجال متلاصقين وقد عقد كل منهم ذراعه بذراع صاحبه . ثم بدأوا يسهتزون في حركة عنيفة أفرادا وجماعة ذات اليمين وذات اليسار ، ورافق حركتهم التلوى العنيف ، واستمرت إلى أن خارت قواهم" وقد دهش القرتسيون من أمر الفقراء الدراويش . كان كثير منهم يجرون هنا وهناك عراة تماما "في نشوة دائمة" كما ورد في تقرير للجنة العلمية ، ولم يكن شئ من الأشياء محظورا عليهم . كانت النسوة يتبركن بالاتصال بهم ، وفي الأعياد يؤلفن نطقا حول الولي ومن اختارها

لحمايتهما .<sup>(١)</sup>

وإضافة إلى ذلك جلب الفرنسيون - رجال التنوير ١١ - إلى ديارنا منكرااتهم، وروجوا لها في الصحف التي كتبها مطبعة التنوير في إعلانات مغرية للتردد عليها وشراء ما أرادوا نشره من محرمات في المجتمع المسلم الملتزم بإسلامه كى يصبح مجتمعا متحلا من قيمه العقدية والأخلاقية النبيلة ، يقول هيرولد أيضا : " ولو أخذنا نموذجا - كيفما اتفق - من الإعلانات التي تنشرها صحيفة "بريد مصر" لتينا كيف نقلت قطعة من باريس إلى القاهرة : " في نهاية الشهر الفينيسي ، في بيت المواطن الطيب فولمار ، يوجد مصنع للمشروبات والخمر بجميع أنواعها والطافيا والمشروبات الكحولية وغيرها من السلع الأوربية الطراز" .. "المواطنون فور ونازو وشركاؤهما ، يصنعون جميع أنواع المشروبات في ميدان بركة الفيل قرب المستشفى رقم ٢ بأسعار معتدلة" .. "تبغ فرنسي من جميع الأنواع مصنوع في بيت محمد كاشف (أى الذى استولوا عليه) بشارع بتي توار ، أمام المطعم الميلاي" .. "كوتشينة جميلة تباع في مطبعة الجيش" .. "فور وجيشار ، وشركاؤهما ، صانعون وتجار تجزئة لجميع أنواع المشروبات والخمر المستوردة والبيد والقهوة والسكر والعطور .. الخ .. الخ" <sup>(٢)</sup>

هذا ما رآه رجال حملة التنوير لنا نحن المسلمين المصريين ١١ مما أدى إلى نفسور الناس منهم وثورتهم عليهم <sup>(٣)</sup> .

فهل في هذا الخروج الذى عدد الجبرتي وغيره صورا منه النهضة التنويرية الحضارية التي أرادها لنا تلاميذ المدرسة الاستعمارية كما رآها أسلافهم

(١) بونايرت في مصر ص ١٦٣ .

(٢) بونايرت في مصر ص ١٧٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٤ .

من قبل ١١٩ .

#### هادي عشر : نشر السخور والخلاعة والمجون ( مهزلة هوكة تحرير المرأة ) :

كان نشر الأفكار والتقاليد والعادات الغربية الفرنسية من السفور والميوعة والتخنث والفجور بصورة علنية في المجتمع المصري الملتزم بإسلامه غرضاً من أغراض رجال الحملة الفرنسية ، بدءاً بنابليون ومروراً بكليبر وانتهاء بمينو . حتى إن كليبر كرر على نابليون حين سافر إلى فرنسا أن يرسل له طائفة من "المثليين" الذين تسهم دور كبير في نشر الخلاعة بين المصريين ، فكان مما رد به نابليون عليه كما سبق : " كنت قد طلبت مراراً جوقة تمثيلية ، وسأهتم اهتماماً خاصاً بإرسالها لك ، لأنها ضرورية للحيش ، وللبداء في تغيير تقاليد البلاد . " .

فهذه العبارة الأخيرة تعطيها كيف أن القوم كانوا حريصين على نشر الرذائل الخلقية السلوكية السائدة لديهم في مجتمعنا تميعاً لقيمنا الثابتة التي نعمنا بها قروناً ، وكأنهم ما جاعوا إلا لهذا . وقد تم لهم بعض ما أرادوا .

تكلم الجبرتي عن أحداث سنة (١٢١٣هـ) التي دنس الغزاة الفرنسيون فيها بأقدامهم أرض الكنانة فقال : " منها أنهم أحدثوا بغيظ النوبي الجحور للأزيكية أبنية على هيئة مخصوصة منتزهة يجتمع بها النساء والرجال للسهر والخلاعة في أوقات مخصوصة ، وجعلوا على كل من يدخل إليه قدراً مخصوصاً ، أو يكون مأذوناً ويده ورقة . " (١) .

وهذه هي بيوت الدعارة التي جاءت ثورة الإخاء والحرية والمساواة لزرعها داخل ديارنا ، فهي رائدة في هذا الميدان الخبيث .

كما ذكر في أحداث نفس السنة أن امرأة راقصة من "الرميلة" كانت تسأتي

(١) عحاب الآثار ٢/ ٢٣١ .

الفرنسيين ، وترقص لهم في القهوة التي يخطهم ليلا ونهارا ، وتبيت معهم في البيت ، ويصباحون على حالهم .. وكان مصيرها الشنق على أيدي المصريين حين علموا أمرها <sup>(١)</sup> .

وهذه القهوة بالبيت تعد أول كياريه ينشأ في مصر على أيدي رجال التنوير وتحرير المرأة [١] .

وعن أحداث عام (١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م) وما كان فيه ، وهو العام الذي ظهر الفرنسيون أن أقدامهم ثبتت فيه بمصر قال : " ومنها - أي من أحداث هذه السنة - تخرج النساء ، وخروج غالبيهن عن الحشمة والحياء وهو أنه لما حضر الفرنسيين إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم ، كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات القستانات والناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمر ويسوقنهن سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ، ومداعبة المكارية معهم ، وحرافيش العامة ، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتدخلن معهم لمضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن .. وكان ذلك التداخل أولا مع بعض احتشام وخشية عار ، ومبالغة في إخفائه . فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر <sup>(٢)</sup> ، وحاربت الفرنسيين بولاق ، وفتكوا في أهلها ، وغنموا أموالها ، وأخذوا ما استحسنته من النساء والبنات ، صرن مأسورات عندهم ، فزيوهن بزي نسائهم ، وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال ، فتخلع أكثرهن نقاب الخيل بالكلية ، وتدخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر . " <sup>(٣)</sup> .

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٥٨ .

(٢) يقصد المقاومة الشعبية التي استمرت ٣٧ يوما عام ١٢١٣هـ .

(٣) عجائب الآثار ٢/ ٤٣٦ .



ثم تكلم عن تزوج بعض الفرنسيين من بنات الأعيان الذين اشتروا الديبا بالآخرة - مكتفين بقبول الشهادتين فقط - وتعويد أولاء الزوجات المسلمات بعادات الفرنسيات من التبرج والسفور في الشوارع وبحضرة الأجانب ، والسير مع الأزواج أو الضيوف للأمر والنهي دون حياة <sup>(١)</sup> .

إلى أن يقول : " ومنها - أى من نفس السنة المذكورة - أنه لمسا أوفى النيل أذرعه ودخل الماء إلى الخليج ، وجرت فيه السفن ، وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيين ومصاحبتهم لهن في المراكب ، والرقص والغناء ، والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة ، وعليهن الملابس الفاخرة والخلى والجواهر المرصعة ، وصحبتهن آلات الطرب ، وملاحوا السفن يكثرون من الهزل والجحون ، ويتجاربون برفع الصسوت في تحريك المقاديف بسخيف موضوعاتهم وكتائف مطبوعاتهم ، وخصوصا إذا دبست الحشيشة في رؤوسهم ، وتحكمت في عقولهم ، فيصرحون ويطلبون ويرقصون ويزمرون ، ويتجاربون بمحاكاة ألفاظ الفرنسية في غنائهم وتقليد كلامهم شئ كثير . " <sup>(٢)</sup> .

أما "نقولا الترك" المؤرخ اللبناني الذى عاصر الحملة هو الآخر وحضر إلى مصر لتتابعها <sup>(٣)</sup> وسجل ما شاهد ، فقد قال : " وخرجت النساء خروجا شنيعا مع الفرنسية ، وبقيت مدينة مصر ( يعنى القاهرة ) مثل باريس ، في شرب الخمر والمسكرات ، والأشياء التى لا ترضى رب السماوات . " <sup>(٤)</sup> .

(١) المرجع السابق ٤٣٦/٢ - ٤٣٧ .

(٢) عجائب الآثار ٤٣٧/٢ .

(٣) كان قد أرسله سيده أمير الدروز إلى مصر ليلاحظ ما يجرى فيها . [بوقارت في مصر ص ٢٠٣] .

(٤) يوسف باشا القرماتلى والحملة الفرنسية على مصر . د . محمد عبد الكريم الوافى . ص ٢١٩ المشاة العامة للشر والتوزيع . طرابلس . ليبيا . الأول ١٣٩٣هـ / ١٩٨٤م نقلا عن كتاب : "ذكر مملك الفرنسية الديار المصرية والأنظار الشامية" ص ٢٢٢ . باريس ١٨٣٩م .

وهذا الكلام من الجيرتى ونقولا يوضح بجلاء مدى التأثير السدى أحدثه الفرنسيون فى أفكار وسلوك من لا خلاق لهم ولا دين فى المجتمع المصرى ولا سيما مدينة القاهرة .

وكان من آثار ذلك ظهور ما يسمى بحركة تحرير المرأة التى أخذت أطوارا متعددة <sup>(١)</sup> ، وصلت فى الطور الأخير منها إلى الدعوة إلى تحلل المرأة من الثوابت التى تمثل أصولا عقدية وشرعية وأخلاقية لتخرج بها من عفتها وطهارتها وحياتها ودينها إلى حياة المرأة الغربية فى متاحى الحياة المختلفة ولو خالف ذلك بيئتها وعقيدتها وطبيعتها الأنثوية .

لقد وضعت الحملة الفرنسية النواة الأولى للدعوة لهذا التفسخ العام المضيق للبيت والأسرة وبالتالي المضيق للمجتمع كله والسبب أصاب رشحها رفاعه الطهطاوى ، ثم تولى كبرها فيما بعد قاسم أمين وهدى شعراوى وصفية زغللول وهلم جرا <sup>(٢)</sup> .

ومن عجب أن يعد تلميذ المدرسة الاستعمارية "لويس عوض" ومن لف لفه ، عام (١٨٠٠م) بداية تحرير المرأة المصرية <sup>(٣)</sup> ، معتبرا أن النساء الخليعات المتبرجات

(١) راجع الفصل الثانى من كتاب المؤامرة على المرأة المسلمة تاريخ ووثائق . د. السيد أحمد فراج ص ٣٣-٤٢ . دار الوفاء . الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

(٢) راجع التفاصيل فى كتاب قضية تحرير المرأة للأستاذ محمد قطب . مكتبة السنة بالقاهرة . الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

(٣) انظر ودخلت الخيل الأزهر ص ٣٦١ .

المدرسة الاستعمارية فى تفسيرها للتاريخ ، تجعل من الحملة الفرنسية ، بداية تاريخنا القومى .. بداية تحررنا من الاستعمار التركى ومخروجننا من القرون الوسطى .

ولكن الحملة الفرنسية - باتفاق جميع المؤرخين - هى بداية غزو الإمبريالية الغربية الحديثة للشرق .. فكيف يمكن أن تصبح الإمبريالية دامية محرر ، وأداة التقدم والانتعاش ؟

ولمعالجة هذا التناقض تتقدم المدرسة الاستعمارية بثلاثة مزاعم : { يتبع }

اللاتى كن يدرن على رجال جيش الاحتلال آنذاك ، طلائع حركة التحرير النسائية ، وهذا منه - ومن على شاكلته - تهجم على الإسلام وتعاليمه فيما يتعلق بشعور المرأة المسلمة ، وتزوير في الحقيقة والتاريخ . وقد ناقش الأستاذ محمد جلال كشك هذا الإدعاء وفنده تفنيديا علميا جيدا فليرجع إليه من أراد التفصيل في الفصل السابع من الكتاب المذكور آنفا .<sup>(١)</sup>

وقد ذكر الأستاذ كشك في الفصل المشار إليه أن "لويس عسكوس" استشهد بالمنحرفات على أنسهن طلائع حركة التحرير ، أمثال "زينب" ابنة الشيخ البكرى ، والمرأة "هوى" ، وإليك حقيقة كليهما .

أما الأولى ، فإن أباهما قد كان محبا للدنيا ، يشرب الخمر ، ويمارس الشذوذ

{تابع} الأول : هو عزل الحملة الفرنسية عن المجرى العام لحركة التاريخ ، فهي ظاهرة معرلة عن تاريخ الاستعمار الفرنسى ، وعن تاريخ العلاقات الغربية بالشرق الإسلامى .

فالحملة الفرنسية بموجب هذا الزعم - ظاهرة مرتبطة بالثورة الفرنسية ، وليس بالاستعمارية الفرنسية ، فالثورة الفرنسية عبرت عن نفسها في "نابليون" الذى راح يذمر مبادئها جيشا جرت خيولته .. ومن ثم وجيش الاحتلال الفرنسى .. ليس في أوربا وحدها ، بل وأيضا في الشرق ، لم يكن جيشا استعماريًا تقليديا .. بسبل كان جيشا ثوريا ، كان جيش تحرير ، التعاون معه هو تعاون مع الثورة ، أو انتماء لها ، وهو تعاون مع انجساح العصر ، وركوب لقاطرة التاريخ .. وبالتالي فرفض الوجود الفرنسى ، أو مقاومة هذا الوجود ، هو موقف رجعى ، ورفض للتحرر والتقدم وتثبيت بالقرون الوسطى [ودخلت الخيل الأزهر ص ٣١] .

الرغم الثانى : هو القول بأبدية تخلفنا ، واستحالة تحلصنا من هذا التخلف إلا بقبول السيطرة العربية والحضوع لها ، والسلم على يد المحتلين بنفس راضية . وقد ناقشهم الأستاذ محمد جلال على معظم صفحات كتابه في هذا الزعم ، ولأنه كما ذكر جعل موضوع كتابه لمناقشته .

الرغم الثالث : هو القول بأن مصر والوطن العربى كانت مستعمرة تركية ، ومن ثم فكل الذى حدث هو استبدال استعمار متقدم باستعمار متخلف .. فمن الناحية الوطنية لم يخسر الوطن شيئا ، ومن الناحية الحضارية استفاد الكثير !! [المرجع السابق ص ٣٧] . وقد ناقشهم الأستاذ كشك أيضا في هذا الزعم من الفصل الأول من كتابه المذكور [ص ٤١-١٢١] .

(١) ودخلت الخيل الأزهر ص ٣٦١-٣٨١ .

الجنسى ، ويدع ابنته للقائد الفرنسى .. وعندما رحل الفرنسيون وعـ  
العثمانيون مرة ثانية ، قدم ابنته إلى القتل لتنال جزاء ما ارتكبت ، وأما هو فـ  
جزاء الخزي من الجمهور .

وأما الثانية ، فقد وقعت في حمأة الرذيلة مع جيش الاحتلال ، وكان جزاؤهـ  
القتل على يد زوجها .. هاتان هما المرأتان اللتان اعتبرهما لويس عوض ومـ  
شايعة رائدتي تحرير المرأة في بداية القرن التاسع عشر على يد الفرنسيين المختلسين  
أهذه هي قيادة تحرير المرأة ؟ .. السفور والفجور والخبي ؟ أين الحديد الذى قدمت  
الحملة فيما يتعلق بالنظرة إلى المرأة ؟

إن سلوك الحملة لم يعبر عن نظره للمرأة أكثر من كونها وسيله للتفريـ  
الجنسى .. والضابط الفرنسى الوحيد الذى نظر إلى " الأشي " المصرية كـ امرأة  
هو "مينو" الذى تزوجها وأنجب منها واصطحبها ، هى وابنها إلى فرنسا ، ولو  
الزوجة المصرية تعرضت هناك لحنة شديدة ، عندما أصر قائد الحملة الفرنسية وابـ  
الثورة "العلمانية" على تنصير ابنه ، وعارضت هى ، واحتال عليها "مينو" بقتـ  
مستشرق زعم لها : أن الأديان كلها واحدة ، وقرأ لابنة "الحمامى" الرشيدى ، آء  
من القرآن تثبت ذلك .. والغريب أنه لم يقنع لا هو ولا "مينو" بالآية ، وإلا لمـ  
أصر على تنصير ابنه .<sup>(١)</sup>

لقد فتح أدعياء التنوير من تلاميذ المدرسة الاستعمارية أعينهم على الساقطاد

(١) انظر ودخلت الخليل الأزهر ص ٣٦٨ - ٣٧٢ ، بونايرت في مصر ص ٢١٩ - ٢٢٠ .  
ذكر ميرولد أن إسلام مينو كان لأسباب تتصل بالفراغ والسياسة أكثر مما تتصل بالدين . [انظر بونايرت .  
مصر ص ٢٠٠ ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤] .. ولهذا لما خلف كليبر راح يعبر ملامح البلاد كى يصوغها على صـ  
فرنسا ، فسن عدة قوانين منها : تغيير قوانين الموارث الإسلامية ، وإلغاء القانون الجنائى الإسلامى ، وأنشـ  
محاكم جنائية تحت إدارة الفرنسيين . وعده المسلمون كاذبا ودجالا يريد اقتلاع نظم الإسلام . وقد ساء  
أحوالهم في عهده ، وتناول عليهم الفرنسيون والنصارى [بونايرت في مصر ص ٣٨٧] .

اللاتى كن موجودات قبل الحملة الفرنسبة وزاد فحورهن بمجىء الحملة ، وغضسوا الطرف عن الشرفات اللاتى كان لهن فى نهضة مصر ومقاومة الحملة دور مشكور ، من مثل السيدة نفيسة المرادية زوجة "على بك الكبير" ثم "مراد بك" من بعده ، فهى سيدة عفيفة ذات مآثر جمة ، ولها مواقفها العظيمة فى مواجهة جيش الحملة ، وليس فى فرنسا كلها امرأة تمتعت بما تمتعت به هذه المرأة .. ومن مثل زوجة "عثمان بك الطنبرجى" ، فقد كانت على شاكلة سابقتها فى المكانة والشرف والدفاع عن الوطن <sup>(١)</sup> . ومن مثل النساء المجاهدات اللاتى كن يحملن فى الزكائب لإلقائهن فى النيل مع الرجال — كما سبق — ليلقين الله تعالى شهيدات فى سبيله سبحانه .

وكذلك أخواتهن فى الوجهين البحرى والقبلى اللاتى كسان لهن دور مشهود فى المقاومة حماية للعرض ودفاعا عن الدين والوطن . لقد اندهش القائد "بليار" الذى حاول احتلال جزيرة فيلة فى الجنوب ، فلم يستطع لبسالة الرجال والنساء فيها على السواء ، وكتب — كما ذكر هيرولد — فى يومياته : "علت صيحات الأهالى ، وراحت النسوة ينشدن أناشيد المعركة ويثرن الغبار ، ثم أعطين إشارة القتال" فأمر "بليار" ببناء أطواف واقتحام الجزيرة ودهم النساء .. يقول "دينون" : "وألقى الجميع — الرجال والنساء والأطفال — بأنفسهم فى النهر ، وكنت ترى النساء ، الثابتات على فطرتهن (..) ، يفرقن الأطفال الذين لا يستطيع حملهن معهن ، ويشوهن بناتهن حماية لهن من اغتصاب المنتصرين" <sup>(٢)</sup> .

بل إن القوم غضبوا الطرف عما فعله نابليون ورجاله بالساقطات وهن موضع

(١) انظر ودخلت الخيل الأزهر ص ٣٧٣-٣٧٥ .

(٢) بولابرت فى مصر ص ٢٦٨ .

رعاية تلاميذ المدرسة التنويرية ١١ .

فقد أصدر نابليون أمره بقتل (٤٠٠) امرأة من المومسات اللاتي كن يسترددن على ثكنات الجيش ، فقتلن وقطعت رؤوسهن وحيطن في غرائر ، وألقى بهن في النيل<sup>(١)</sup> . فهل هذا هو تحرير المرأة ١١١٩ .

### ثاني عشر : إفساد البرلمان :

كان بمصر قبل الحملة الفرنسية ديوان "برلمان دائم" ، هو الديوان الذي يتشكل من "الوجاقلية" أو رؤساء الفرق ، ويكون مجلس "شورى الباشا المسمى بالديوان" ، وإذا كان ثمة مقارنة يمكن أن تعقد بين الديوان العثماني وغيره من المجالس النيابية التي عاصرتة فإن الحقائق التاريخية في صف الديوان العثماني .

فهذا الديوان له سلطة كبيرة في إدارة الحكومة ، لأن الباشا ( الوالي ) يستطيع أن يبرم أمرا إلا بموافقة أعضائه ، وإذا وقع خلاف بينه وبينهم يؤجل البسـ فيـه إلى أن يرفع إلى الأستانة ، ولـهم أن يطلبوا عزله ، فكانت سلطة ضباط الفرق بمثابة رقابة وإشراف على سلطة الوالي . وبهذا الوصف يصبح الديوان العثماني . سلطة برلمانية حقيقية ، تعادل سلطة أرقى البرلمانات المعاصرة ، فهو له حق "الفيتو" على تشريعات الوالي ، بل وحق طلب عزل الحاكم .

وإذا أغرتنا لعبة الألفاظ فإننا نلاحظ تطور هذا "البرلمان" على النحو التالي : تطورت إليه كل المجالس النيابية .

فقد أنشأ السلطان "سليمان القانوني" بدل مجلس شورى الباشا ديوانين : الأول الديوان الكبير ، والثاني الديوان الصغير ؛ فالديوان الكبير مؤلف من رؤساء القسـ ( أغاواتها ) و"دفترداريها" و"وروزنامچيها" وأمير الحج ، وقاضى مصر

(١) المصدر السابق ص ١٧٥ .

ورؤساء المشايخ ، والأشراف ، ورؤساء المذاهب الأربعة . ولهذا الديوان سلطة البت في شؤون الحكومة الرئيسية . وله نقض أوامر الوالي .

أما الديوان الصغير فكان ينعقد يوميا .. وكان الباشا يحضر جلسات الديوانسين من وراء ستار ، وللتسلية يمكن أن نشبه ذلك بتحريم الدساتير على الملك حضور جلسات مجلس الوزراء أو البرلمان ! ، ولكنه كان ملزما بتنفيذ قرارات الديوانين .

أبهر هذا الديوان قنصل فرنسا المسير "دى مايليه" الذى لم يكن قد رأى حتى ذلك الحين ( ١٦٩٢ م ) اجتماعا مماثلا له في فرنسا ، فقال : " إن ديوان القاهرة أكثر أبهة من ديوان الآستانة .. وقد رأيت بقاعة الديوان نحو أربعة آلاف شخص مجتمعين ، وبعد تلاوة أمر السلطان ، وبيان الباشا ، صاح هذا الجمع بأن السلطان قد خدع . وأنه من الواجب رفع الحقيقة إليه .. وانتهى الاجتماع بحسم الخلاف على طريقة رضيهاها ورضوا عنها . " (١) .

هذا عن الديوان الذى عرفته مصر قبل مجيء الفرنسيين إليها ، فماذا حدث له بعد غزوهم لنا واحتلالهم لديارنا ؟ .

لقد مزقوا شمل الأمة ، وقضوا على قوة المماليك (٢) التى عرفوا بها قرونا وكانت مسخرة للدفاع عن الإسلام ، وقضوا على الديوان الذى أبهر القنصل الفرنسى قبل قدوم الحملة إلينا بأكثر من قرن ، وصارت الأمة بلا حكومة تدير شؤونها ، أو برلمان يحكم أمرها .

فشرع نابليون عقب احتلاله القاهرة في تكوين ديوان "برلمان" هزيل يؤدي

(١) انظر ودخلت الخيل الأزهر ص ٢٤٦-٢٤٣ .

(٢) شهد بذلك هيرولد ، وضرب أمثلة عديدة على شجاعتهم واستسلامهم في المعارك التى وقعت بينهم وبين الفرنسيين نقلا عن شهود عيان . انظر بوناپرت في مصر ص ١٠٩ .

للغزة المختلين الدور الذى رسموه له ، عن طريق أقوام هم موضع ثقة الجماهير . يقول هيرولد : " أما دور ديوان القاهرة - ودواوين الأقاليم المنشأة على غرارها - فهو أساسا إضفاء الصفة الشرعية على السياسات الفرنسية وإقرارها بفضل مكانة العلماء والفقهاء الذين تتألف منهم الدواوين . كتب بوناپرت لكليبر يقول : إننا إذا كسبنا تأييد كبار شيوخ القاهرة كسبنا رأى العام فى مصر كلها . فليس بين زعماء الأمة كلهم من هو أقل خطرا علينا من الشيوخ ، فهم جنباء ، عاجزون عن القتال ، يوحون - لجميع رجال الدين - بالتعصب دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين " (١) .

وكان من وراء الجهاز العسكرى جهاز آخر، هو الاستشراق الذى لعب دوره الخطير فى تكوين هذا الديوان الكسبيح .

يقول العلامة محمود شاكر : " وهذا "الديوان" أمر بإنشائه نابليون منذ أول يوم دخل فيه القاهرة ( الثلاثاء ١٠ صفر ١٢١٣هـ / ٢٤ يوليو ١٧٩٨ م ) ، وذكر فى أمر إنشائه أسماء مشايخ بأعيانهم يتكون منهم "الديوان" . وهذا الذكر المفاجئ وحده دليل على أن الأمر كان معدا إعدادا كاملا قبل أن تخطأ قدمه أرض مصر ، وأن الأسماء قد اختيرت بعد تدبير محكم ودراسة قام بها "الاستشراق" وأعوانه منذ فكر فى شن الحملة على مصر . وقاعدة اختيارهم : "أن يكونوا ممن أعيان البلاد الذين امتازوا بمركزهم العلمى وكفائتهم ، وطريقة استقبالهم للفرنسيين" . ومعنى ذلك أنه يريد أن يودع سلطة الحكومة الظاهرة الموهبة فى يد فئة ذات هبة عند الناس ، وأن يكونوا جميعا ممن يمكن أن يستجيبوا بشكل ما استجابة تدين بالولاء لجيش الغازى ، لهروض بهم قوى المقاومة ويخضعها ويفت فى عضدها . وهذا شئ لا يقدم على مثله بهذه السرعة ، إلا بعد خبرة سابقة

(١) بوناپرت فى مصر ص ١٥٥-١٥٦ .



بأصحاب هذه الأسماء وبمواطني ضعفهم التي تقعد بسهم عن المقاومة ، وتسبون لهم أن يحسنوا "استقبال الفرنسيين" الذين انتهكوا حرمة ديارهم وأوطانهم . ولا سبيل إلى معرفة ذلك كله إلا عن طريق جهاز مدرب قد طال عهده باختبار الناس وتقصى أحوالهم من قريب . وهذا الجهاز هو "جهاز الاستشراق" الذي كان يعرف لغة أهل البلاد ، والذي كان يتحول في الأرض المصرية من قبل ويلبس لأهلها كل زي .<sup>(١)</sup> .

ولهذا كان المستشرقون الفرنسيون يشرفون بأمر نابليون ، وخليفته على الديوان ، ويديرون جلساته ، لا يتخلف عنه أحد منهم .

فقد أصدر نابليون أمره في ( ١٨ يوليو ١٧٩٨م ) بتعيين "الأدجودان جنرال بوفوازان" قوميسيرا لدى الديوان ، وعهد إليه حضور جلساته على السدوام ، وأن يرفع إليه عقب كل جلسة كل ما يدور فيها ، وكان نابليون حريصا على تتبع مداولات الديوان حتى في أثناء تغيبه عن العاصمة ، فإنه لما ارتحل عن القاهرة لتعقب جيش "إبراهيم بك" ببليس أصدر أمره إلى الجنرال "ديزيه" بأن ينوب عنه في شؤون القيادة ، وكلفه بأن يتلقى من "بوفوازان" تقارير يومية عن جلسات الديوان ، ولما أوفد نابليون "بوفوازان" في مهمة لدى الجزائر عين بدله المسيو "تاليان" قوميسيرا لدى الديوان ( ٣١ أغسطس ١٧٩٨م ) . ويؤخذ من أمر نابليون القاضي بهذا التعيين أن مهمة القوميسير هي التحسس على الأعضاء ، فإن نابليون يقول في أمره : "على الستويان ( أى المسيو ) تاليان أن يحضر جميع جلسات الديوان ، وأن يسعى في معرفة أخلاق أعضائه ، ومبلغ الثقة التي يمكننا أن نوليهم إياها ، وعليه أن يبلغني كل يوم بالشكاوى التي ترفع إلى الديوان ، والمسائل

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ١٥٠-١٥١ .

التي بحث فيها ، والطلبات التي يديها .<sup>(١)</sup> .

لقد أنشئ بواسطة الجهازين : العسكري والفكري الديوان الذي كل مهمته تحقيق مصالح المحتل الأجنبي ، من تبليغ أوامره إلى الشعب لتنفيذها وتحذيره من الثورة لنيل حريته واستقلاله ، وتحصيل الأموال بكل سبيل ، أما مصالح الأمة التي أنشئ البرلمان المملوكي العثماني لأجلها فلا .

يقول الرافعي : " من الواجب أن نعرف أن الديوان العام لم تكن له سلطة قطعية في الأمور التي عرضت عليه ، بل كان الغرض من انعقاده استشارته والوقوف على آراء أعضائه .

إن خطاب افتتاح الديوان مفهوم منه أن عمل الأعضاء مقصور على الإجابة عما يسألون عنه من النظم المراد وضعها ، ويكون نابليون القول الفصل فيما "يليق صنع" ، وعلى هذه القاعدة انعقد الديوان .

ومن جهة أخرى فقد كانت المسائل التي تعرض على الديوان تدرس في الوقت نفسه في لجنة ألفها نابليون برئاسته ويعضوية مدير مهمات الجيش ومدير الشؤون المالية وكبير المباشرين ، وأمر بأن تنعقد هذه اللجنة يوميا وتقرر القرارات النهائية فيما يتداول فيه الديوان . فقرارات الديوان كانت أشبه "برغبات" تعرض على اللجنة التي ألفها نابليون ، ولهذه اللجنة القول الفصل .<sup>(٢)</sup> .

وصار على هذا المنوال في شل مهمة الديوان وتحديد وظيفته تخليفته كليسير ومينو .

وإن شئت مثالا واقعا على ذلك ، فدونك المجلس الذي انعقد بالديوان في شهر

(١) تاريخ الحركة القومية ١٠٣/١ .

(٢) تاريخ الحركة القومية ١٠٩/١ .

ذى الحجة عام ( ١٢١٥ هـ ) أيام كليبر .

ذكر الجيرتى تهيو الأعضاء يوم الجمعة فى الشهر المذكور لحضور المجلس ، واستشراقهم للمناصب ، ثم مفاجأتهم فى الديوان بما لم يكونوا يتوقعونه من المقابلة السيئة التى عبرت عن الاستهانة بهم ، والتصرفات التى حدثت لهم ودلت على أنهم كانوا فى سجن أو معتقل ولم يكونوا فى برلمان ينالون فيه كامل حريتهم مع رجال الحرية والإخاء والمساواة .

وما هى فقرات مما سجله لنا هذا المؤرخ العظيم ، أنقلها بتمامها لأنها تظهر لنا حقيقة المهزلة البرلمانية التى أقامها المحتلون الفرنسيون .

” فلما كان فى صباحها يوم الجمعة ثامنه ، بكروا بالذهاب إلى بيت سارى عسكر ، ولبسوا أفخر ثيابهم وأحسن هياتهم ، وطمع كل واحد منهم وظن أن سارى عسكر يقلده فى هذا اليوم أجل المناصب ، أو ربما حصل التغيير والتبديل فى أهل الديوان ، فيكون فى الديوان الخصوصى . فلما استقر بهم الجلوس فى الديوان الخارج أهملوا حصة طويلة لم يؤذن لهم ولم يخاطبهم أحد ، ثم فتح باب المجلس الداخلى وطلبوا إلى الدخول فيه ، فدخلوا وجلسوا حصة مثل الأولى . ثم خرج إليهم سارى عسكر وصحبته الترجمان وجماعة من أعيانهم ، فوضع له كرسي فى وسط المجلس ، وجلس عليه ، ووقف الترجمان وأصحابه حواليه ، واصطف الوجاقلية والحكام من ناحية ، وأعيان النصارى والتجار من ناحية ، وعثمان بك الأشقر والبرديسى أيضا حاضرا . وكلم سارى عسكر الترجمان كلاما طويلا بلغتهم حتى فرغ ، فالتفت الترجمان إلى الجماعة وشرح يفسر لهم مقالة سارى عسكر ، ويترجم عنها بالعربى ، والجماعة يسمعون . فكان ملخص ذلك القول أن سارى عسكر يطلب منكم عشرة آلاف ألف إلى آخر العبارة الآتية . وأما هذه العبارة فإنه قالها المهدي : فقط إننا لما حضرنا إلى

بلدكم هذه نظرنا أن أهل العلم هم أعقل الناس . والناس بهم يقتدون ولأمرهم  
يمثلون ، ثم إنكم أظهرتم لنا الحجة والمودة وصدقنا ظاهراً حالكم فاصطفيناكم  
وميزناكم على غيركم ، واخترناكم لتدبير الأمور وصلاح الجمهور ، فرتبنا لكم  
الديوان وغمرناكم بالإحسان وحفضنا لكم جناح الطاعة وجعلناكم مسمرعين  
القول مقبولين الشفاعة ، وأوهمنا أن الرعية لكم بتقادون ولأمركم ونهيكم  
يرجعون، فلما حضر العثملى فرحتم لقدمهم وقمتم لنصرتهم ، وثبت عند  
ذلك نفاقكم لنا . فقالوا له : نحن ما قمنا مع العثملى إلا عسى أمركم لأنكم  
عرفتمونا أننا صرنا فى حكم العثملى من ثانى شهر رمضان ، وأن البلاد والأموال  
صارت له وخصوصاً وهو سلطاننا القديم وسلطان المسلمين . وما شعرنا إلا  
بحدوث هذا الحادث بينكم وبينهم على حين غفلة ، ووجدنا أنفسنا فى وسطهم  
فلم يمكننا التخلف عنهم . فرد عليهم الترجمان ذلك الجواب ، ثم أجابهم بقوله :  
ولأى شئ لم تمنعوا الرعية عما فعلوه من قيامهم ومحاربتهم بنا ؟ . فقالوا لا يمكننا  
ذلك خصوصاً وقد تقفوا علينا بغيرنا ، وسمعتم ما فعلوه معنا : من ضربنا  
وبهدلنا عندما أشرنا عليهم بالصلح وترك القتال . فقال لهم : وإذا كان  
الأمر كما ذكرتم ، ولا يخرج من يدكم تسكين الفتنة ولا غير ذلك فما فائدة  
رياستكم ، وإيش يكون نفعكم إلا الضرر لأنكم إذا حضر أخصامنا قمتم معهم  
وكتتم وإياهم علينا ، وإذا ذهبوا رجعتم إلينا معتذرين ، فكان جزاؤكم أن نفعل  
معكم كما فعلنا مع أهل بولاق من قتلكم عن آخركم وحسرق بلدكم وسبى  
حرىكم وأولادكم ، ولكن حيث إننا أعطيناكم الأمان فلا ننقض أماننا ولا  
نقتلكم، وإنما نأخذ منكم الأموال .“ (١) .

وحدد كليير المبلغ المطلوب منهم ، وذكر أسماء أشخاص بعينهم من المشايخ

(١) عجائب الآثار ٢/٣٤٤-٣٤٦ .

تضعف عليهم العقوبة في تحصيل الأموال ، وطلب منهم -وهم أعضاء البرلمان- (١٥) رهينة منهم حتى يوفروا بالمبلغ المطلوب تحصيله ، ثم تركهم ودخل من باب داخلي إلى حجرة مجاورة ، وأغلق الحرس الباب دونه .

” ووقف الحرس على الباب الآخر بمنعون من يخرج من الجالسين ، فبهت الجماعة وامتنعت وجوههم ، ونظروا إلى بعضهم البعض ، وتحيرت أفكارهم ، ولم يخرج عن هذا الأمر إلا البكرى والمهدى ، لكون البكرى حصل له ما حصل في صحائفهم ، والمهدى حرق بيته بمراى منهم ، وكان قبل ذلك نقل جميع ما فيه بداره بالخرنفش ، ولم يترك به إلا بعض الحصر ، ولم يكن به غير بعض الخدم ، وكان يستعمل المداينة وينافق الطرفين بصناعته وعادته . ولم تنزل الجماعة في حيرتهم وسكرتهم ، وتمنى كل منهم أنه لم يكن شيئا مذكورا ، ولم يزالوا على ذلك الحال إلى قريب العصر حتى بال أكثرهم على ثيابه ، وبعضهم شرشر ببوله من شباك المكان . وصاروا يدخلون على نصارى القبط ويقعون في عرضهم ، فالذى انحسر فيهم ولم يكن معدودا من الرؤساء أخرجوه بحجة أو سبب ، وبعضهم ترك مداسه وخرج حافيا وما صدق بخلاص نفسه .“ (٢)

” أى قلم فوتغرافى غير قلم "الجيرتى" يستطيع أن يمنحنا صورة معبرة مفحمة لوضعية "نواب البلاد وممثلى الشعب" . وهم يولون في ثيابهم .. والإيجابى منهم "يشر شر ببوله من الشباك" ا ليس فيهم من يجرؤ على طلب السماح له بالتوجه إلى دورة مياه ، رغم أن الحضارة الغربية ثمن علينا بأنسها هى التى علمتنا نظام المحارى غير أن المدرسة الاستعمارية فى محاولتها التدليس على الدور الحضارى والتحريرى الذى لعبته الحملة الفرنسية تجد نفسها مندفة فى تعداد "الأولات" التى

(٢) المصدر السابق ٣٤٦/٢-٣٤٧ .

أدخلها الفرنسيون في بلادنا .. فهناك أول "برلمان" وأول "مجلس وزراء" وأول "حكومة مسئلة" وأول "محاكمة عادلة" وأول "مطبعة" وأول "عزل صحى" وأول "تخطيط للنوابات" .. وأول "فيلق من العملاء" ... وأول "مشروع للاستقلال" .. أول "طلب للحماية الأجنبية" .. الخ .

وهذه المدرسة تصف هذا الديوان "المحصور" بأنه كان تدريباً للمصريين على النظام البرلمانى ومسئولية الحكومة أمام النواب وتجربة للحكم الذاتى ... ولا شك أنها إن كانت قد فهمت - وهو ما لم يحدث لحسن حظ الديمقراطية - على هذا النحو ، من النخبة المصرية ، فلا شك أنها قد تركت أثراً عكسياً ، ونفسوراً من هذه التجربة .. وكيف يصدق "التلاميذ" المصريون أن "الحكومة مسئلة أمام البرلمان" الذى هم أعضاؤه وهم يرون أنفسهم - إن صدقوا أنهم نواب - لا يملكون حتى الحق الطبيعى الذى نالته سائر الكائنات الحية ، وهو حق إفسار المواد السامة المتجمعة فى الجسم ! .. وأى قاعة لدرس الليبرالية والديمقراطية وبعث القومية ، تلك التى تحولت إلى ما يشبه المراحيض العمومية ؟<sup>(١)</sup> .



تلك كانت بعض أغراض الحملة التى تجرعت الأمة كؤوس مآسيها على أيدي رجال الحرية والإخاء والمساواة ! ، والتى تظهر لنا حقيقة الحملة الفرنسية على عكس ما ادعى تلاميذ المدرسة الاستعمارية ، فهل هذا ما أثبتته الكتاب الفرنسيون فى أعمالهم ؟ .

(١) ودخلت الخيل الأزهر ص ٢٣٧ .

وقد عالج الأستاذ محمد جلال كشك موضوع الديوان ، وفند ادعاءات "لويس عوض" وغيره من تلاميذ المدرسة الاستعمارية فى ص ٢٣٣-٢٦٩ ، ص ٣٠٩-٣١٩ ، على رجوع إليه من شاء .

## الحملة في كتابات الفرنسيين

ظهرت في كتابات الفرنسيين المعاصرين للحملة واللاحقين لها الأغراض التي سبق ذكرها والتي أظهرت الحملة على وجهها الصحيح ، كما ظهر فيها حقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين وتحيزهم الواضح للغزاة من بني ملتهم وجلدتهم ، وإضفاء الطابع الأسطوري على الحملة ، مما كان لهذا أثره على عقلية الفرنسيين المعاصرين من ناحية وعقلية المولعين بكل ما هو غربي من تلاميذ المدرسة الاستعمارية في ديارنا الإسلامية من ناحية ثانية .

ويحسن بنا في هذه العجالة أن نعرض لطائفة من هؤلاء الكتاب الفرنسيين ، من واقع ما ذكرته لنا الدكتوراة ليلي عنان أستاذ الحضارة الفرنسية بكلية الآداب جامعة القاهرة في كتبها : "الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة"<sup>(١)</sup> . و "الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير"<sup>(٢)</sup> ، و "الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ"<sup>(٣)</sup> حيث كشفت فيها القناع عن حقيقة الحملة الفرنسية ، وردت على مزاعم تلاميذ المدرسة الاستعمارية ، ومثلها لا يتهم فيما ذهبت إليه ، فهي - مع تخصصها وطول باعها في هذا الميدان - تلميذة المدارس الفرنسية ، وأساتذتها - كما صرحت - منذ نعومة أظفارها حتى حصولها على الدكتوراة فرنسيون<sup>(٤)</sup> ، إلا أنها لم تنس عروبتها: ولم تتخل عن هويتها الدينية والثقافية ، فلم تقتنع بما لفتته في المراحل الدراسية ، ولا بما قرأته عن الحملة في الكتابات المشوشة ، فشمرت عن ساعد الجدل لقطع الشك باليقين ، واستجلاء الأمر بطريقة علمية صحيحة<sup>(٥)</sup> .

(١) إصدار دار الهلال . عدد ( ٥٠٠ ) صفر / أغسطس ١٩٩٢ م .

(٢) وهو من إصدارات دار الهلال . عدد ( ٥٦٧ ) ١٩٩٨ م .

(٣) وهو أيضاً من إصدارات دار الهلال . عدد ( ٥٧٤ ) . أكتوبر ١٩٩٨ م .

(٤) الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير ص ١١ .

(٥) انظر المصدر السابق ص ١١ .

وجعلت مصادرها في المادة العلمية للكتب ، بل وما توصلت إليه من نتائج ما كتبه الفرنسيون أنفسهم من باب "وشهد شاهد من أهلها" (١) .

وخلصت في الكتب إلى أن الكتاب الفرنسيين جعلوا من نابليون شخصية أسطورية قادرة على فعل الأعاجيب ، وحشوا كتبهم ومقالاتهم بالمبالغات عن الحملة الفرنسية التي كانت بلاء على مصر . وأن ما ذكر عن الحملة من كونها كانت تنويراً محض افتراء .

تقول : " فالدراسات التاريخية الحديثة قد دحضت الكثير مما كان المؤرخون يرددونه من قبل : لقد أصبح من المعترف به الآن مثلاً أن الحملة لم يكن لها ذلك التأثير الذي كانوا يتحدثون عنه . " (٢) .

وفي الكتب أيضاً عرضت للكتاب الفرنسيين (المعاصرين للحملة واللاحقين لها الذين كتبوا عن الحملة مظهرة أغراضها التي اضطروا للاعتراف بها ، وداحضة ما سودته أقلامهم من افتراءات .

وإليك نماذج لهؤلاء الفرنسيين وكتاباتهم ، وتعليق الدكتورة ليلي على بعضها ، مع ملاحظة الاختصار على ما ورد في كتاب "الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير" لمناسبته مقصود الدراسة في كتابنا وتضمنه معاني النماذج الواردة في الكتابين الآخرين .

#### ١ - "شاتو بريان" :

كاتب فرنسي عاصر الحملة ، ومر بمصر فمكث بها يومين إبان احتلالها.. ألف كتاب "المسار من باريس إلى أورشليم" .

تكلم فيه عن الحملة الفرنسية ، ولم ينس صليبيته المتلفة حقداً على الإسلام وأتباعه ، ودعا بني وطنه وملته إلى القيام بحرب صليبية أخرى غير التي قام بها

(١) المصدر نفسه ص ١٣ ، ص ١٨ .

(٢) الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير ص ٧ .



نابليون . وكان يؤكد أن أربعين ألفا من الجراييع الروس في استطاعتهم المرور على جثث الانكشارية ، والاستيلاء على القسطنطينية ، وقد تحاشى ذكر كلمة استانبول في كتاباته <sup>(١)</sup> .

وطوال صفحات الكتاب نعت الإسلام بأنه : العبادة التي تعسدى الحضارة بنظامها الأساسى ، المؤيد للجهل والطغيان والرق وإنه الدين — على حد زعمه الكاذب — الذى أحرق مكتبة الإسكندرية ويعتبر دعى الرجال ميزة <sup>(٢)</sup> .

وقال : ” إن الطبيعة يحلو لها أن تذكرنا بأفكار الحضارة ، فى البلد الذى ولدت فيه هذه الحضارة حيث يحكم الآن الجهل والبربرية .. (يقصد الإسلام) ” <sup>(٣)</sup> .

وقد ربط "شاتو" بين حملة لويس السابعة وحملة نابليون على مصر ، وأن الثانية انتصار للأولى .. يقول : ” كنت فى الوقت نفسه أذكر أن حراب فرساننا وسناكى جنودنا ، كانت قد عكست أشعة هذه الشمس الساطعة مرتين ، مع الفارق طبعاً لأن فرساننا الذين هزموا يوم المنصورة انتقم لهم جنودنا فى معركة الأهرامات . ” <sup>(٤)</sup>

وذكر المؤلف أن نابليون نفسه شرح الهدف من حملته التى قام بسببها لاحتلال مصر وما جاورها ، وبين أن الهدف الرئيس من الحملة كان زعزعة القوة الإنجليزية فى أركان العالم الأربعة ، من أجل ثورة تغير وجه الشرق كله ، وتعطى للهند مصيراً آخر . وكان يقول : ” إن مصر كان عليها أن تقوم بدور سان دومينج ومستعمراتها الأمريكية ، وتجمع بين حرية السود ورخاء

(١) الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير . ص ١٦٣ .

(٢) المصدر المشار إليه ص ١٦٤ .. والنص : العطن والوطء بالرجل

(٣) ص ١٧٢ .

(٤) ص ١٦٦ .

تجارتنا . الخ .. كانت هذه المستعمرة الجديدة ستهدم الإنجليز في أمريكا والبحر المتوسط وحتى ضفاف نهر الكانج<sup>(١)</sup> .

وتعلق الدكتور ليلي عنان على هذا الكلام الصريح من نابليون فتقول رداً على أدعياء التنوير : " ولا نرى في هذا الكلام الصريح أية إشارة إلى المشروع الحضاري الذي طالما سمعنا أنه الهدف الرئيسي من وجود الجيش الفرنسي في مصر ... ومثل كل ما يمس الأسطورة لم يلاحظ أحد هذه الصراحة في الاعتراف بحقيقة نية الحملة على مصر .

هذا هو كلام نابليون نفسه ، الذي لم يفنده إلا أعداؤه وبالتالي لم يشكك فيه أحد حتى عصرنا هذا <sup>(٢)</sup> .

## ٢ - "جان ميز" و "جورج ليجران" :

اشترك هذان المؤلفان في تأليف كتاب جعلوا عنوانه : "في بلاد نابليون - مصر" .  
قسما الكتاب إلى جزأين وأفراده في كليهما للحديث عن الحملة من وجهة النظر الغربية .

ذكر "ميز" في الجزء الأول من الكتاب أن الفرنسيين بعد احتلالهم لمصر أثقلوا كاهل أهلها بالضرائب الباهظة مما زاد من برؤسهم .. وذكر أن نابليون استعمل المكر والدهاء في استلاب أموال الحجاج إلى بيت الله الحرام<sup>(٣)</sup> .

وفي الجزء الثاني تعرض "جورج ليجران" لبعثة العلماء ، ومضمونه أن البعثة كان واجبها الأول خدمة الجيش وأهدافه ، فقد ذكر أن "مونج وبرتولي وبونابرت"

(١) ص ١٩٤ .

(٢) ص ١٩٤-١٩٥ . وراجع في هذه الشخصية الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ ص ١٥-٣٠ من خلال كتاب آخر بعنوان : "مذكرات ما وراء القبر" .  
(٣) انظر ص ٢٢٥-٢٢٧ .

هم الذين ابتكروا الخطة التكميلية لإلحاق لجنة العلوم والفنون بالجيش المنتصر ،  
تكون مهمتها تحضير وتنفيذ استعمار مصر .

وذكر أن بونايرت كان يبحث حكومة الإدارة في فرنسا على أن تعهد إليه بجيش  
من اختياره ولجنة من العلماء ، وتعهد لها بالاستيلاء على مالطية لحصانتها ،  
والاستيلاء على مصر الخصبة .. فالحملة إذن استعمارية بحتة بما فيها بعثة العلماء ..  
وقد أراد أن يصحبه في الحملة الشعراء والمغنون والممثلون والراقصون والراقصات ،  
لكنهم اعتذروا في اللحظات الأخيرة ... لقد أراد نابليون بالعلماء وبهؤلاء إنشاء  
مستعمرة مثالية تكون جديرة به وبالفلاسفة وبأصدقائه <sup>(١)</sup> .

وفضلاً عن خدمة العلماء الذين صحبوا الحملة للجيش ، فقد كان هناك عمل  
آخر صرح به "ليجران" على لسان أحد علماء الحملة عند سفرهم إلى مصر هو  
إفادة فرنسا وحدها دون مصر بما يحصنون عليه من معلومات . يقول أحدهم  
مفتخراً : " كنا نشعر ببعض الغبطة كلما فكرنا أننا سننقل إلى وطننا كل نتائج  
العلم القديم للمصريين . كنا سنحاول القيام بغزوة حقيقية باسم الفنون . كنا  
سنعطى أخيراً ولأول مرة فكرة حقيقية وكاملة عن الآثار التي لم يتحدث عنها  
الرحالة القدامى والمعاصرون إلا بصورة غير مرضية " <sup>(٢)</sup> .

ويعلق المؤلف قائلاً : " وبناء عليه ، فكلما مروا على أثر ، حفروا عليه كلمة  
"الفرنسيون منتصرون في كل مكان " <sup>(٣)</sup> .

وعن كتاب "وصف مصر" الذي رفعه أدعياء التنوير إلى السماء ذكر المؤلف أنه  
كان إخفاء لهزيمة الحملة وفشل أهدافها كلها ، وأصبح هذا الكتاب — كما عر

(١) انظر ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(٢) ص ٢٤٠ .

(٣) ص ٢٤٠ .

هو - الإنجاز الملموس الوحيد الذي تفخر به فرنسا بعد فشل الحملة <sup>(١)</sup>.

وعن حجر رشيد الذي تكلموا عنه كثيرا روى "ليجران" أن الضابط المهندس "بوشار" اصطدم به بالمصادفة البحتة حين كان يقيم تحصينات طابية "سان-جوليان" <sup>(٢)</sup>. وأوضح أن الفرنسيين أنبهروا بما شاهدوا من آثار مصرية ، حتى أن "ديسيه" طلب من بوناپرت نقلها - أي سرقها ممن موطنها الأصلي - إلى باريس <sup>(٣)</sup>.

وعن مصير الجمع العلمي الذي أقامه نابليون بمصر خدمة للجيش الفرنسي قال "ليجران" : " لكن هذه الجمعية الشهيرة لقيت بعد ذلك مصير الحملة نفسه وعندما عادت إلى فرنسا ، أخذت تجتمع في باريس ، ونشرت أبحاثها من العام الثامن من الثورة (١٧٩٩-١٨٠٠) إلى العام الحادى عشر منها (١٨٠٢-١٨٠٣)، وقد حل محلها بعد ذلك كتاب "وصف مصر الكبير" وانتهى تاريخ المعهد الفرنسى . " <sup>(٤)</sup>.

كما ذكر "ليجران" أن الجنود الفرنسيين كانوا يمرون على الأحياء ليسجلوا المنازل والسكان من أجل فرض ضريبة الأملاك.. لذا كانت العلاقة بين الشعب

(١) ص ٢٤١ .

(٢) ص ٢٤١ . وهى قرب رشيد ، وكان ذلك عام (١٧٩٩م) وقد نقله الإنجليز إلى لندن بعد أخذه من أيدي الفرنسيين ، وهناك عكف العالم الفرنسى "فرانسوا شامليون" الذى أقام بلندن سبعة عشر عاما ، على دراسة نقوشه ، وأحيرا اكتشف فك رموز الحروف الهيروغليفية عام (١٨٢٢م) .. والنص مصباح بثلاث لغات : الهيروغليفية ، والديموطيقية ، واليونانية .. وهو عبارة عن شكر الكهنة الفرعويين للملك "بطليموس الخامس" على اهتمامه بالمعابد . [انظر يوسف باشا القرمائلى والحملة الفرنسية على مصر . ص ٢١١ ، بوناپرت فى مصر ص ١٩٠ ، ص ٤٠١] .

(٣) ص ٢٤٤ .

(٤) ص ٢٤٢-٢٤٣ .

والفرنسيين سيئة.. وكان أول مكان تعرض لهجوم الثوار هو مكان رجال البعثة العلمية.<sup>(١)</sup>

وذكر أن العلماء حين رحيلهم اصطحبوا معهم صناديق بها ثمرة أبحاثهم التي ضنوا بها على مصر ، غير أنهم تعرضوا في الطريق لاستيلاء الجنود عليها ونهبها ظنا منهم أن بها جواهر نفيسة ، وأمرهم "مينر" بالتخلص منها ، وأخذ عليهم عهدا ألا يأخذوا شيئا معهم يفيد الموقف السياسى أو الحربى لمصر.<sup>(٢)</sup>

وأشار "ليجران" إلى نقطة جوهرية يطمسها أدعياء الثقافة دائما هى تأكيدهم على عدم وجود ارتباط بين العلماء الذين اصطحبتهم الحملة والعلماء الذين استقدمهم محمد على إلى مصر لتحقيق النهضة التي أرادها ، فنحن من خلال كلامه نجد مرتزقة أجبرتهم ظروفهم الخاصة وظروف بلدهم على خدمة مصر والحساب واليها ، و في المقابل نجد علماء جاعوا مع حملة لم تدم أكثر من ثلاث سنوات وشهرين لينقلوا إلى فرنسا ثمرة أبحاثهم .

وتساءل د. ليلي عنان ردا على هؤلاء الادعائين قائلة : " فلماذا يطمس هذا الفارق الجوهري في ظروف كل من الفريقين ، الذين عملا لأهداف هى في الواقع متناقضة ؟ " <sup>(٣)</sup>

### ٣- "باستر" :

ألف "باستر" كتابه "يونابرت في مصر" وهو من عنوانه حديث عسن نابليون والفرنسيين في مصر إبان احتلالهم لها ، وهو بما حوى من أغاليط يعد مرجعا

(١) ص ٢٤٣ .

(٢) انظر ص ٢٤٥ .

(٣) ص ٢٤٥-٢٤٦ .

لأدعياء التنوير في بلادنا .

لقد أعلمنا "باستر" من خلال موقف المصريين من الحملة أن نابليون فهم أن نظرية القرن الثامن عشر الفلسفية والإنسانية لم يكن لها مجال تطبيق في الشرق.. وتعلق الدكتورة ليلي عنان قائلة : " هكذا كان الأمر إذن : بونايرت تلميذ إنسانية التنوير الذى جاء ليطبّقها في مصر فهم أن البلد دون هذا المستوى ، ولا يصلح معه الأسلوب الإنسانى لفلسفة القرن الثامن عشر .. إن كان بونايرت قد جار وهو في مصر ، فالذنب ليس ذنبه ، بل ذنب الشعب المصرى الذى لم يفهم ، ولم يحترم إنسانية الشعب الغازى!!" (١)

وما قاله "باستر" عن مصر وموقفها ، قاله عن عكسا وموقف أهلها من الحملة . (٢)

ونظر باستر للحملة شأنه شأن الكتاب الغربيين وخاصة الفرنسيين على أنها حملة صليبية في المقام الأول . (٣)

واعترف بأن حصاد الحملة كان هزيعا . (٤)

#### ٤ - "بينوا - ميشان" :

كتب "بينوا - ميشان" عام ١٩٦٦م كتاب "بونايرت في مصر أو الحلم السدى لم يتحقق" شرح فيه أن حياة نابليون السياسية الحربية كلها كانت من أجل السيطرة على الشرق بطرقه المختلفة .

(١) ص ٢٥٢ .

(٢) ص ٢٥٣ .

(٣) ص ٢٥٤ .

(٤) ص ٢٥٩ .

وبدأ كتابه بإشارة "ناليان" إلى ضرورة غزو مصر قائلا: "كانت مصر مقاطعة في الجمهورية الرومانية ، ويجب أن تصبح كذلك بالنسبة للجمهورية الفرنسية".

"غزو الرمان كان سبب انهيار هذا البلد الجميل ، وفتح الفرنسيين سيكون سبب رخائه" ... "سرق الرومان مصر من ملوك اشتهروا بالآداب والفنون (...). وسيسلبها الفرنسيون من أبشع طغاة عرفهم التاريخ"<sup>(١)</sup> (يقصد المماليك والعثمانيين المسلمين!!). فهو إذن يصرح بأن استعمار مصر كان طمعا في خيراتها من أجل رخاء فرنسا لا رخاء مصر ..

واعترف "بينوا" بأن الديوان الذي عقده نابليون بمصر كان لصالح الجيش الفرنسي وليس لصالح المصريين ، إذ بواسطته كانت الأوامر تصل إلى عامة الناس<sup>(٢)</sup>.

وكان يرى - حسب تعبيره - أن التطرف الديني الإسلامي كان سبب انهزام الفرنسيين<sup>(٣)</sup> .. فهو يعد مقاومة المحتل الأجنبي تطرفا وتعصبا !! .

واعترف "بينوا" ببعض جرائم نابليون في الشام حين اتجه إليها بعد غزوه لمصر فيقول عما حدث لأهل يافا: "المنازل نهبت ودمرت ، والنساء قد اغتصبن ، وذبح الجنود المسلمون"<sup>(٤)</sup>.

والكتاب محشو بالأغاليط التي تعد - مع أغاليط الكتاب الفرنسيين الآخرين - مرجعا لأدعياء الثقافة المعاصرين .

(١) ص ٢٦٠-٢٦١ .

(٢) النظر ص ٢٦٨ .

(٣) ص ٢٦٨-٢٦٩ .

(٤) ص ٢٦٩-٢٧٠ .

### ٥- "جورج سبيلمان" :

الجنرال "جورج سبيلمان" ضابط فرنسي تولى مسئوليات عسكرية وسياسية وإدارية في أرض الإسلام لأكثر من ربع قرن ، وقد منحه هذا العمل في بلاد المسلمين ما لم يمنح لغيره وقد أتاحت له هذه الفرصة دراسة البلاد التي وطئتها أقدام الفرنسيين عن كثب ، وإن كان السهوى قد سيطر على كتاباته شأنه في ذلك شأن المؤرخين الغربيين .

والكتاب الذي ألفه ونشر عام ١٩٦٩م بعنوان : "نابليون والإسلام" قص فيه علاقة نابليون بالدول الإسلامية في الشرق العربي وأحلامه باستعمارها<sup>(١)</sup>.

ذكر سبيلمان أن هدف الحملة كان تحقيق الرواج التجاري لفرنسا وامتلاك زمام الأماكن الاستراتيجية التي تتمتع بها مصر<sup>(٢)</sup> .

كما أعترف بأن استعانة نابليون بالعلماء كان لسد حاجة الجيش ، أي ليس لأبناء مصر<sup>(٣)</sup> .

وأعلن في الكتاب احتقاره للإسلام واتهامه بما ليس فيه مما يدل على أن الغرض الأساسي للحملة كان صليبيًا ، فهو يقول : " وهكذا زاد مجد بونابرت ، فشعاع نور تسلل إلى ظلمات الإسلام ، وفتح فجوة في البربرية ."<sup>(٤)</sup>

كان "سبيلمان" يرى ما رأته الجمهورية الثالثة في فرنسا وهو على حسب تعبير د. ليلي عنان - : " أن الحضارة واحدة ، لا ثاني لها ، وهي الحضارة الأوربية ، وأن التحضر هو الوصول إلى النمط الأوحده من الحياة في كل أشكاله من

(١) ص ٢٧٥-٢٧٦ .

(٢) ص ٢٧٦-٢٧٧ .

(٣) ص ٢٧٨ .

(٤) ص ٢٨٤ .



ثقافة وأسلوب حياة ، على أن يكون استيعاب تلك الحضارة بتوجيه من الدول المتحضرة وتحت سيطرتها . إنه الاستعمار في أكثر صوره فحاجة كما شكل نظريته الفلسفية مفكرو القرن التاسع عشر وسياسيو الجمهورية الثالثة . وكان الكل مؤمنا بأن رسالتهم في الحياة بل واجبه المقدس هو تحضير الشعوب ولو بالقوة ، بل وبالقوة أولا ، وهو أمر طبيعي مادام الهدف الحقيقي هو الاستعمار الاستغلالي والحصول على موارد وأسواق بلاد أضعف من أن تدافع عن حريتها. (١)

وفي الكتاب أثبت "سيلمان" أن نابليون كان هدفه تحويل البحر المتوسط إلى بحر فرنسي حتى يتسنى له غزو البلاد التي تفصله عن الهند كي يصل إليها . (٢)

## ٦- "ترانييه" و"كارمينيانى" :

أصدر المؤرخان الفرنسيان "جان ترانييه" و"ج.س. كارمينيانى" كتابا بعنوان : "حرب مصر" تكلما فيه عن الحملة ، وضمناه كما كبيرا من الرسومات واللوحات الملونة عددها (٣٧٣) منها (٤٢) بالألوان ، وهى رسوم يسيل لها لعاب أى مهتم بالحملة ، وكثيرها مبالغ فيه ، فهو يمجّد العنصر الفرنسى ويحط من قدر العنصر المصرى والمملوكى المسلم .

يبدأ الكاتب بعرض أهداف الحملة وهى : فتح مصر ، ومشروعات خاصة بالقسطنطينية ( كما يحلو له أن يسمى ) ، وأهداف معينة بالنسبة للهند ، ودحر المماليك الظالمين ( هكذا !! ) وتحرير المستعبدين ، وعتق المسلمين ( هكذا !! ) وحماية التجار الفرنسيين ، وكان عددهم فى مدينة القاهرة ثلاثة فقط ، ودراسة الآثار على طبيعتها ، ثم التبادل والتحسينات الخ .. ثم أخذ يصف سياسة بوناپرت

(١) ص ٢٨٦ .

(٢) ص ٢٩١ .

في مصر بانبهار شديد ..<sup>(١)</sup>

وبعد هذه المقدمة الخاصة "بترانيه" نراه يسرد علينا تساريف الحملة منذ أن أصدرت حكومة "الإدارة" أمر التحرك للقائد العام الجديد والذي كانت تعبيراته من وحيه :

المادة الأولى : القائد العام لجيش الشرق يتوجه إلى مصر بقوات برية وبحرية ويستولى على البلد .

المادة الثانية : يطرد هذا القائد الإنجليز من كل ممتلكاتهم في الشرق في كل مكان يستطيع الوصول إليه ، ويدحض بالذات كل وكالات التجارة على البحر الأحمر .

المادة الثالثة : يقطع القائد برزخ السويس ويأخذ كل الترتيبات الضرورية ليؤكد ملكية الجمهورية الفرنسية الحرة المطلقة للبحر الأحمر .

أما المادة الرابعة والخامسة فتعلقتا بمعاملة أهل مصر واستعمال أسلوب الإدارة في ذلك ذرا للرماد في العيون .. والمادة السادسة : منع طبع هذا القرار .<sup>(٢)</sup>

إن هذا الكلام من ترانيه يبين لنا بجلاء الهدف الحقيقي لفرنسا آنذاك .

واعترف بأن المصريين لفظوا المحتل الفرنسي ، وعرفوا قصده من وراء غزوه لبلادهم ، ومن ثم قامت الثورات في الأقاليم بجانب الثورة في القاهرة والإسكندرية<sup>(٣)</sup> .

(١) ص ٢٩٤-٢٩٦ تصرف .

(٢) ص ٢٩٨-٢٩٩ .

(٣) ص ٣٠٨-٣٠٩ باختصار .

## ٧- "جان تولار" :

"جان تولار" من الكتاب المعاصرين المؤرخين للحملة الفرنسية على مصر ، وهو كغيره من الكتاب الفرنسيين تأتى كتاباته دعاية سافرة للأجناد الفرنسية وتحقير المصريين كى ينسج تلامذتهم من أدعياء الثقافة على منوالهم "حذوك النعل بالنعل" ، تقول الدكتورة ليلى عنان ربيبة التعليم الفرنسى فى المدارس الفرنسية والى لم تتخل مع ذلك عن هويتها العربية الإسلامية التى تنازل عنها البعض : "لا يختلف "تولار" إذن منهجيا عن أسلافه ممن تبنا النظرية المتعالية على الشعوب المستعمرة والى كانت سائدة عند كل من كبر وتعلم وتشبع بفلسفة "الجمهورية الثالثة" القومية الاستعمارية قبل الحرب العالمية الثانية ، فهم يدلسون "بضمير مستريح" حسب التعبير الفرنسى ، ويتجاهلون ردود الأفعال الطبيعية لأى شعب يخضع للقوة الغاشمة ، ولا يفهمون ثورته على مستعمر يستغل ضعفه ، ولذا لا يعزون رفض المصريين للاستعمار الفرنسى إلا لسبب اختلاف الدين فقط ، ولا يذكرون الأفعال الاستفزازية للجند الفرنسيين ."<sup>(١)</sup>

ولأجل هذه النظرية المتعالية من الكتاب الفرنسيين على العرب ، فإن من يكتسب منهم على غير ما يريده الأساتذة يتعرض للنقد اللاذع ويتهم بالتطرف الدينى كما حدث للدكتور رشاد رشدى الذى كتب من وجهة نظر قومية عن سلبات الحملة على مصر فى جريدة الأهرام ، فوجه إليه "تولار" سهام نقده واتهامه ، لأن كتابات د. رشدى على حسب تعبيره : "نتيجة التعليم الدينى السلفى المتعنت الذى يتهم فرنسا بجلب سموم الغرب ، لأن رشاد رشدى يتهم الحملة بأنسها أفقدت مصر هويتها ."<sup>(٢)</sup>

(١) ص ٣٢٥ .

(٢) ص ٣١٩ .

وهل يختلف هذا النقد من المؤرخين الفرنسيين عن نقد أدعياء الثقافة في بلادنا لأصحاب الأقلام الوطنية التزيهة والأفكار الحرة النظيفة ١٩ .

ولكن انتقد "تولار" دكتور رشاد رشدي فقد نصح المخرج "يوسف شاهين" بخصوص فيلمه عن الحملة الذي تشترك فرنسا في إنتاجه أن يعي أن الحملة كانت تحمل بذور فتح قناة السويس ، وتنظيم مجرى النيل ، كما أنها تسببت في صحوة مصر السياسية والاقتصادية ، واكتشاف ماضيها <sup>(١)</sup>.

وتعرض "تولار" في كتابه الشهير عن "نابليون أو أسطورة المنقلد" عام ١٩٨٧م لأهداف الحملة على مصر ، وهي نفس الأهداف التي صرح بها الكتاب الآخرون الذين سبق ذكرهم آنفاً <sup>(٢)</sup>.

واعترف "تولار" بأن البعثة العلمية التي صاحبت الحملة على مصر لم تكن أكثر من تبرير للحملة <sup>(٣)</sup>.

كما اعترف بأن نابليون منح اليهود امتيازات خاصة في مقابل وقوفهم بجانب جيش الحملة <sup>(٤)</sup>.

وصرح أيضا بأن العامل الديني لدى المصريين وكذلك الشمامسة كان وراء مقاومتهم للجيش الفرنسي وليس تأثير الإنجليز أو المماليك <sup>(٥)</sup>.

## ٨- "برتران سوليه" :

ألف "برتران سوليه" سلسلة كتب تحكي مغامرات شاب في نهاية القرن الثامن

(١) ص ٣٢٠ .

(٢) ص ٣٢٠-٣٢١ .

(٣) ص ٣٢٢ .

(٤) ص ٣٢٣ .

(٥) ص ٣١٦ .

عشر ، وهى سلسلة موجهة لسن (١٢) عاما وما بعدها ، ومنها الكتيب المنشور عام ١٩٨٨م والذي يحمل عنوانا باسم "فى مصر مع بونايرت" ، والكتاب مسهم بإيراز هدف الحملة ، وهو : الجيش الفرنسى للشرق فى طريقه إلى مصر ليحرر المصريين من طغيان المماليك (..) ، إنسهم طغاة ، دكتاتوريون .. (هكذا) ، ونلاحظ أن كلمة "طغاة" وهى من مفردات الثورة فى حاجة إلى توضيح للجيل الجديد ، فتضاف إليها الكلمة الحديثة "دكتاتور" ليفهم المعنى ، فالقرن العشرون ضد الدكتاتورية كما كان الطغاة أعداء الثورة الكبرى فى القرن الثامن عشر ، فيصبح المماليك حديرين فعلا بالمحاربة .

والكتاب رغم هذا يعترف فيه مؤلفه بأعمال السطو والقتل التى قام بها الجنود ، فيعرض ما تم من تدمير بسبب ضرب الأزهر والمدافع ثم يقول : "حيث تنهار المنازل المحاورة على السلطان : الشيوخ منهم والشباب ، وأغلبهم لا علاقة له بالمعركة (..) جلادو الشرطة يعملون بهمة ونشاط ؛ مئات الجثث تلقى فى النيل ، يجرفها تيار النهر ، قد يصل عددها إلى الألفين ."

وعندما تتحرك قوة عسكرية لتحصيل الميرى (..) ومصادرة الجياد والجاموس ، تقول (الشابة الفرنسية أحد عناصر الرواية) "هكذا كان يفعل المماليك" (II) .

ويعجب البطل (أحد عناصر الرواية) أثناء مجزرة سكان يافا لما حدثت لجند الجيش الفرنسى : "ماذا أصاب جند الجمهورية الذين دربوا على الدفاع عن الوطن المهدد ، وهم حاملو قيم الحرية والعدالة ؟" ... ١

وتستمر المجزرة والسلب والنهب ، والبطل فى حالة من الغثيان ، ويزداد الأمر سوءا ولا يكاد يصدق عينيه ، وهو يرى الجند يعدمون الأسرى الذين أسلموا حياتهم للجيش المنتصر "بهدوء تام" ، كانت النتيجة أن بعض الجند قالوا بعد

ذلك : " إن السماء تعاقبنا على هذه الجريمة ، فالطاعون يقتل عشرات الجند منذ ثلاثة أيام . " .

وبعد الهزيمة أمام عكا يعترف الجنود : " لقد أحرقنا القرى والمحاصيل ، وقتلنا كل شيء يتحرك " (١) .

واعترف "برتران سوليه" أن المصريين نظروا للجيش الفرنسي نظرة كره وعداء ؛ لأنهم يحتلون معتدون مغتصبون (٢) .

### ٩- فرانسوا شارل - رو :

"فرانسوا شارل-رو" من مؤرخي الحملة على مصر ، ومن المدافعين عنها ، وله مقالتان إحداهما بعنوان : "الهدف الاستعماري للحملة الفرنسية على مصر" ، نشرت عام ١٩٢٤م في مجلة الدراسات النابليونية في المجلد (٢٢) السنة (١٣) (يناير/يونيو) .. والثانية بعنوان : "السياسة الإسلامية ليونسابرت" نشرت في نفس المجلة التاريخية المتخصصة عام ١٩٢٥م في السنة (١٤) المجلد (٢٤) (يناير/يونيو) .

تناول "فرانسوا" في المقالة الأولى المذكرة السرية التي أعدتها حكومة الإدارة لتحديد الغرض من حملة نابليون على مصر ، وهو غرض سياسى واقتصادى وعسكرى فى آن واحد ، يسعى لإنشاء مستعمرة فرنسية فى مصر لاستغلال خيراتها على نحو ما فعل الرومان قبل ذلك ، ولتضييق الخناق على الإنجليز وفتح الباب أمام البلاد المجاورة لمصر فى آسيا وأفريقيا لفرنسا .

وأما عن البعثة العلمية ، فقد حلم نابليون بسرقة آثار مصر لإثراء الترات

(١) ص ٣٢٩-٣٣٣ بتصرف .

(٢) ص ٣٣٠-٣٣١ .

الفرنسي في المجالين الفني والعلمي ، والاستيلاء على القطع الفنية لتزيين متاحف فرنسا ، ولذا أضفى الطابع الفني والعلمي على الحملة .

يتساءل "فرانسوا شارل" عن اللجنة العلمية التي اصطحبها بوناپرت معه ويقول :  
 " ترى ماذا كانت مهمة هذه اللجنة ؟ .

أولا وقبل كل شيء مساعدة الجيش ، ووضع العلم في خدمة الحرب والحكومة ، والإسهام في تنظيم وإدارة البلد الذي تم غزوه ، وإلى جانب ذلك على حد قول أحد الذين ساهموا فيها : إدخال فنون أوروبا إلى شعب نصف همجي ونصف متحضر ، بلا صناعة وبلا تنوير علمي ، وأخيرا الكشف لأوروبا عن مصر القديمة ومصر آنذاك ، مصر الفراعنة واليونان والرومان ومصر المماليك" .

وكشف فرانسوا عن جانب آخر للحملة المشؤومة على مصر تفاضل عنه المهزومون من أدعياء الثقافة في بلادنا ألا وهو "التنصير" فقد اختار نابليون "مونج" وأرسله قبل ذلك بقليل إلى الفاتيكان ليأخذ من لجنة التنصير هناك مطابع اللغات اليونانية والعربية والسريانية بكامل هيئتها من معدات وأحرف وعمال إضافة إلى الخرائط والكتب والوثائق ...

وصرح "فرانسوا" بأن بوناپرت كان يود أن تضم اللجنة جميع التخصصات التي يمكنها أن تفيد في الأعمال العلمية والفنية والأدبية ، على النحو الذي صرح به مؤرخون آخرون سبق ذكرهم في هذه الدراسة .

وفي المقالة الثانية تناول "فرانسوا" السياسة الإسلامية التي اتبعتها نابليون مع المسلمين في مصر .. يقول : " إن السياسات التي كانت أفضل من لاحظت مهارة الشعوب المصرية هي تلك التي اعتبرت أن الدين هو العقبة الأساسية لاستقرار السلطات الفرنسية ، فقد كتب "فولنيه" قائلا عام ١٧٨٨م : لكي تستقر في

مصر لا بد لك من شن ثلاثة حروب : الأولى : ضد إنجلترا ، والثانية : ضد البلب العالى ، والثالثة وهى أصعبها جميعا : ضد المسلمين الذين يكونون غالبية شعب ذلك البلاد “ .

وينهى "فرانسوا" مقالته قائلا : " فلم يكن إلا لمثل بونايرت أن يعطى منذ أول لحظة احتكاك بين فرنسا وشمال أفريقيا ومع الإسلام أكمل النماذج لإدارة محلية وسياسية دينية جديدة تماما ومدفوعة إجمالا إلى أقصى حدود تم تحقيقها آنذاك ، وعلى أى حال لم يتخطها أحد إلا أن الإخضاع والتحالف الذين كانت تستهدف إليها هذه السياسة المحلية والدينية ، كانت هى نفسها تهدف إلى تحقيق الهدف الاستعماري الذى كان مسندا إلى الحملة الفرنسية في الظروف الأمنية المطلوبة ، غير أن تنفيذ نفس هذا المخطط الذى ساندته على التوالى حيوية بونايرت ونشاطه لم يمكنه ألا يؤثر بدوره على استعدادات الأهالى تجاه السيطرة الفرنسية . “ .

واضح من كلام "فرانسوا" وغيره من السابقين عليه أن الحملة الفرنسية على مصر كانت احتلالا واستعمارا .. وأنها عبارة عن عملية سياسية واقتصادية وعسكرية ، بل مشروع حقيقى لإنشاء مستعمرة ، وعمل ثورة حقيقية في الحياة الاقتصادية لشعوب الغرب ، وتعويض فرنسا عن فقدانها للمستعمرات الأمريكية ، وأن هدف الحملة هو جعل مصر تابعة لفرنسا ، وأن "فوربييه" قد ساهم في كتاب وصف مصر الذى تتغنى به تلك الشرذمة وتتخذ ذريعة للاحتفال كتب قائلا في مقدمته : " إنه ساهم في هذا العمل من نفس منطلق الأهداف الاستعمارية والإحياء الاقتصادي بالاستغلال العقلاني لمواردها “ .. كما حدد "فرانسوا" وغيره أنه منذ هذه الحملة قد بدأت فكرة استخدام الحرب في إثراء التراث الفنى والعلمى لفرنسا عن طريق لجنة العلوم والفنون التى كانت مهمتها بالتحديد مساعدة الجيش ووضع العلم في خدمة الحرب والحكومة ، والإسهام في



تنظيم وإدارة البلد الذى تم غزوه ، إلى جانب إدخال فنون أوروبا إلى شعب ممحسى  
 بلا تنوير ، الأمر الذى يعنى بداية فرض عملية التغريب واقتلاع الجذور والتراث  
 .. كما يكشف المؤرخ حقيقة تلك المطبوعة المزعومة التى تتغنى بسها تلك الشردمة  
 ، وأنه قد أتى بسها من الفاتيكان ومن لجنة التنصير بكل ما تتطلبه من عناد  
 ومعدات ، وذلك لأن الدين الإسلامى هو العقبة الأساسية لاستقرار السلطات  
 الفرنسية فى مصر .. وأن المجازر التى قام بسها نابليون فى مصر وعكا هى أكمل  
 النماذج لتحقيق الهدف الاستعمارى المسند إلى الحملة الفرنسية .<sup>(١)</sup>




---

(١) هذا النموذج الأخير من مقاله بعنوان : "الهدف الاستعمارى للحملة الفرنسية على مصر والسياسة  
 الإسلامية لليونابرت" للدكتورة زينب عبد العزيز أسناد الحضارة مآداب التنويرية - جريدة الشعب  
 . ١٩٩٨/٣/٢٤

## مهزلة الاحتفال بحملة نابليون

بانت لك الأغراض الحقيقية للحملة الفرنسية التي حركتها عن بلادها وجسأت لتحقيقها في ديارنا : من وأد لليقظة الإسلامية ، وسرقة لنفائسنا العلمية ، ومن اعتداء على قدسية الأزهر وغيره من المساجد ، وتنكيل بقادة الأمة وبالشعب ، واستتراف لخيرات البلاد بالضرائب الباهظة التي أثقلت كاهل الشعب ، وتريسة لجيل من بني جلدتنا يقوم بالدور الفرنسي في ديارنا ، وتفتيت للوحدة الوطنية ، وقضاء على المظاهر العمرانية الجميلة التي ازدانت بها مصر ، وسعى لنشر البدع والمنكرات بين أبناء الأمة ، ونشر للسفور والخلاعة والمجون في المجتمع المسلم ، وإفساد للبرلمان وتطويعه لتحقيق المآرب الاستعمارية . وهذا ما قد ظهر في ثنايا كتابات المؤرخين الفرنسيين أنفسهم كما تقدم ، وظهر بجلاء للأمة زمن الحملة فاستجابت لنداء أهل الحل والعقد من أبناء الوطن ، ووقفت في وجه المحتل الأجنبي وقاومته رغم الظروف الصعبة التي مرت بها تحت راية الإسلام لا تحت رايات أو شعارات أخرى ، وظلت صامدة في مقاومتها مدة ثلاث سنين وشهرين<sup>(١)</sup> حتى دحرته بفضل الله تعالى ، فأخذ عصاه ورحل بأذنايه عسك ديارنا<sup>(٢)</sup> . وتنفس

(١) أبدى أنام مصر في الوجهين البحري والقبلي صربا من البسالة في مقاومة المحتل العارى بكل الوسائل الممكنة آنذاك على ما هو مفصل في مظانه ، وظهرت صور من البطولات النادرة التي أهدرت الخليل بما لا يمكن حصره ولا يتسع هذا المؤلف لذكره . إذ له غرض آخر غير غرض سرد الحوادث ، وإليك مثلا لهذه الصور من الوجه القبلي .. ففى قرية "الفقاهى" مركز "بنا" هاجم فنى يبلغ من العمر (١٢) عاما جنديا فرنسيا وحطف بدقيته .. ولكن جنديا آخر أسرع فضربه بالسيف على ذراعه ، ثم أخذه إلى الجمرال "ديزيه" ، فلما سأله القائد عما فعل ، أبدى شجاعة فائقة ، واعترف بفعله . وأبى أن يدل على محرضين له . ثم قال للقائد : "إليك رأسى فأمر بقطعه" ، وأعجب القائد ديزيه بهذا الفتي وبما أبداه من شجاعة وقوة ، وثقة بنفسه ، ثم أمر بضربه ثلاثين جلدة ، تحملها صابرا ، جندا ، لا يتحمل ، ولا يتوجع . [مصر في القرن الثامن عشر . محمود الشرقاوى ٨١/٣ ، بونابرت في مصر ص ٢٥٥] . وشارك أبناء جلدته وينبع من الجربة العربية إخوانهم في هذه المقاومة . [انظر بونابرت في مصر . ص ٢٥٨-٢٦٠] .

(٢) انظر الجبرتى ٤٧٦/٢ .

المسلمون الصعداء برحيله ، ونظفوا البلاد من قذاراته ، يقول الجبرتي عن اليوم الذى رحل فيه المحتلون وهو ( ١٩ صفر ١٢١٦ هـ ) .

” وفى ذلك اليوم أيضا فتحوا باب الجامع الأزهر ، وشرعوا فى كنسه وتنظيفه . “ (١) .

وهذه العبارة من الرجل ترمز إلى تطهيره وتنظيفه بعد أن تخلصت مصر من أدرانها الممتلئة فى دنس الاحتلال الفرنسى ، وعادت مرة ثانية إلى طهارة العروبة والإسلام الذى هو قدرها إلى أن تقوم الساعة بإذن الله تعالى .

وفرحت مصر قيادة وشعبا بعودتها إلى الدولة الأممية الثانية : الدولة العثمانية (٢) التى هى رمز وحدتها وقوتها ، ورحب أبناءها بعودة المسالك والولاة العثمانيين إليهم (٣) .

(١) عجائب الآثار ٤٧٦/٢ .

(٢) اعتبرت الدولة العثمانية حملة نابليون على مصر والشام حملة على الباب العالى نفسه ، فاشتبكت القسوات العثمانية مع الفرنسيين فى معارك كثيرة فى جهات متعددة ، رغم وجود حلف بينهما ، ورغم ما تظاهر به نابليون فى أول الأمر . فقد وقعت معركة بين الطرفين فى العريش انتهت بهزيمة العثمانيين والمماليك أمام قوات نابليون . [انظر بونايرت فى مصر ص ٢٨٤-٢٨٧] . ومعركة باها التى قصى على كثير من حاميتها بسبب مفاجئة نابليون لها فى الليل ، وارتكب هناك مناسخ بشعة . [المصدر السابق ص ٢٨٧-٢٩٥] . ومعركة مدينة عكا التى حاصر نابليون حاميتها ، غير أنها - بقيادة أحمد الجزير - صمدت واستماتت فى الدفاع حتى أجبرت نابليون على العودة إلى مصر مرة ثانية بجر وراءه بحرى الهزيمة . [انظر المصدر السابق ص ٢٩٥-٣٢٧] . ومعركة أبي قير الثانية عقب عودة نابليون من سورية ، وقامت بين الطرفين حرب شرسة أبدى فيها الأتراك بسالة ظاهرة ، غير أنها انتهت بهزيمة العثمانيين . [انظر المصدر نفسه ص ٣٣٣-٣٣٦] . ثم موقعة عين شمس التى وقعت عام ( ١٨٠٠ م ) ولقيت هى الأخرى المصير نفسه . [انظر المصدر نفسه ص ٣٧٠-٣٧١] .

وما من شك فى أن هذه المعارك المتتابة فضلا عن مقاومة الأهالى قد قضت على شوكة الفرنسيين وعجلت برحيلهم . وهذا يرد الزعم القائل بأن الدولة العثمانية تخلت عن مصر فى هذه الحنة ، ولم تشترك فى الدفاع عنها ، وتركت الأهالى يلاقون وحدهم ويلاون الغزو .

(٣) انظر الجبرتي فى ذلك ٤٧٥/٢ .

فهل يعقل بعد هذه الحقائق التاريخية الموثقة التي لا يحارى فيها إلا مكابر معاند أن يطلع علينا أقوام يحتفلون بمرور مائتي عام على حملة نابليون على مصر مدعسين أنها كانت تنويرا لنا ١٩ .

الحق أن هذا عبث بعقول الأمة ؛ لأنه تزوير للتاريخ وقلب للحقائق ، وعسيري بربك من في الدنيا مهما كانت ديانتهم أو ثقافتهم يحتفل بعدوه الذي غزا دياره وسعى فيها فسادا ، وتعددت مآسيه حتى ملأت السهل والجبل ١٩ .

حقا لقد صدق المفكر المسلم "رجاء جارودي" الذي حضر إلى مصر عام (١٩٩٨م) بمناسبة المعرض الدولي للكتاب ، وسأله الأستاذ فهمي هويدي عن رأيه في احتفال مصر وفرنسا في ذكرى الاحتلال بمرور (٢٠٠) سنة على العلاقات الثقافية بين البلدين ، فقال له : " لم أصدق عيني حين قرأت الخبر ، وأعتبره حماقة لا نظير لها . " (١) .

لقد كان هناك من الأحداث التي رفعت رأس مصر إسلاميا وعالميا ، وأظهرت مكانتها العسكرية والحضارية ، ما هو أولى وأهم لنا مثل : فتح عمرو بن العاص لها ، وهذه نقطة البدء في دخولها عصر التنوير الحقيقي ، ولولاها لظلت تنحبط في دياجير الظلام . ومعركة حطين (٥٨٣هـ / ١١٨٧م) بقيادة الناصر صلاح الدين الأيوبي ، ومعركة عين جالوت (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) بقيادة المظفر قطز وكتائبهم ردتا جيوش الظلام ، وحررتا المقدسات من أيدي المغتصبين - صليبين ومغولا - أليست هذه الأحداث وغيرها المظهرة لمجد الأمة ومكانة مصر أولى بمثل هذه الاحتفالات ١٩ .

ثم إذا كانت مصر قد شاركت فرنسا بهذا الاحتفال ، فهل ردت فرنسا على

(١) من مقالاته بجريدة الأهرام الصادرة يوم الثلاثاء بتاريخ ١٧/٢/١٩٩٨ .

هذا الكرم ولو على سبيل المجاملة فاحتفلت بمرور أربعة عشر قرنا على دخول المسلمين فرنسا واحتلالهم أكثر من نصفها بقيادة "السمع بن مالك" ومن بعده "عنبسة" ١٩ .

هل جاملتنا فاحتفلت بموقعة بلاط الشهداء أو "توريواتيه" التي حدثت في هذه المنطقة بقلب فرنسا أوائل رمضان عام (١١٤هـ/٧٣٢م) بين الجيش الإسلامي التنويري بقيادة "عبد الرحمن الغافقي" والجيش الفرنسي السهمجي بقيادة "شارل مارتل" والتي انتهت باستشهاد "الغافقي" وانسحاب الجيش الإسلامي إلى مدينة "سبتماية" <sup>(١)</sup> الأمر الذي أبحر دخولها النور والحضارة لمدة عشرة قرون حتى عصر النهضة ١٩ ، وهل يستطيع هؤلاء التنويريون إقناع فرنسا بذلك ١٩ .

وإن تعجب فعجبك من رجل مثل فؤاد زكريا الذي برر حملة نابليون على مصر بوضعه أوجه شبه بينها وبين ما فعله عبد الناصر حين جرد جيشا إلى اليمن . فبعد الناصر قاد حملة عسكرية إلى اليمن كما فعل من قبل نابليون بمصر ، وهو قد أخذ معه مدرسين إلى اليمن مثلما جاء جاء نسابليون معه بالمطبعة إلى مصر <sup>(٢)</sup> ١١ .

وهذا تبرير في غير موضعه تماما ، إذ لم يوافق أحد من العقلاء على ما فعله جمال في اليمن ، والحملة إن جاز التعبير كانت ضربا من العتريات التي لم يكن من ورائها هدف اللهم إلا تصدير المذهب الاشتراكي الفاشل الذي مكن باليمن زمنا

(١) راجع مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ص ١٤٣-١٥١ ، مقالة "هل تحتفل فرنسا بحملة عبد الرحمن الغافقي" للأستاذ الدكتور يحيى هاشم مرغل . جريدة الشعب ١٩٩٨/٩/١ م .

(٢) في مقالة له بتاريخ ١٩٩٨/١/٣ م تحت عنوان "دهاء التاريخ" الذي استوحاه من الفيلسوف الألماني "هيجل" . راجع مقالة : "قراءة في المقولات المروجة للاحتفالية بالحملة الفرنسية" هدى مكاي . الشعب ١٩٩٨/٣/٢ .

لطفمة من المتسلطين الذين بدلوا نعمة الله كفوفاً وأحلوا قومهم دار البوار . كما أنها أضعفت قوة مصر ، وأضاعت هيبتها بين الدول ، وبددت طاقة شبابها بل وذهب الكثير منهم صرعى معركة لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، وكانت هذه من الأسباب التي أصابتنا بانتكاسة (١٩٦٧م) أمام اليهود الملاحين ، ويستطيع القارئ أن يجد تفاصيل ذلك في كتاب "مذبحة الأبرياء في ٥ يومية" للكاتب الصحفي الأستاذ وجيه أبو ذكرى .

أما المدرسون الذين زعم الكاتب أن عبد الناصر أخذهم معه ، فالصحيح أن المدرسين الذين ذهبوا إلى اليمن ، كانوا مثل إخوانهم الذين ذهبوا إلى الجزائر وغيرها من بقية دول الخليج آنذاك ، فهؤلاء جميعاً ذهبوا بناء على طلب حكومات هذه الدول لتعليم أبناءهم في المراحل التعليمية المختلفة دون أن تكون هناك علاقة بينهم وبين الجيش الناهب للقتال ، إلا ما كان من نفر القليل الذي ذهب لترويج الاشتراكية هناك ، وهؤلاء كانوا قلة وسط الكثرة التي ذهبت للتعليم حقاً .

وأما المطبعة المظلومة المزعومة ، فقد سبق بيان مصدرها ووظيفتها ومآلها بما يدحض زعم الكاتب .



## الخاتمة

بان لك أخى الكريم على صفحات هذا الكتاب الربط الكامل بين الحملتين الصليبيتين على مصر ، رغم الفارق الزمنى بينهما : الأولى منظره وهى الحملة الصليبية السابعة بقيادة القديس لويس التاسع التى اكتسحت جزءا غاليا من ديارنا ، وكان قصدها الاستيلاء على مقدساتنا واستتراف خيراتنا وإعادةتنا إلى حياة الظلام مرة أخرى ، غير أن الله تعالى الذى تداركت رحمته العباد والبلاد بعث فى الأمة روح الجهاد ، فهت من سباتها وتعالى على خلافاتها وضعفها ، يقودها الحكام والعلماء وسادة الناس ، وقاومت المحتل الغازى حتى أنزلت به الهزيمة الساحقة . غير أن العدو لم يتوقف ، فسرعان ما لعق شيطانه لويس جراحه وشرع فى وضع مخططه الرهيب للغرب الصليبي ، ومرت القرون حتى سنحت الفرصة لابن الثورة الفرنسية ، فقام نابليون فى العصر الحديث بحملته الصليبية على مصر تسانده جيوش الاستشراق تنفيذا للمخطط اللويسى ، وعاث فيها فسادا ثلاثة أعوام وشهرين ، لقى فى أثنائها مقاومة الأهالى من العلماء والتجار والمماليك ومن أرسلتهم الدولة العثمانية ، حتى تطهرت مصر من أرجاسهم ، فخرجوا يحسرون ورائهم أذيال الخزي والهزيمة دون أن يتركوا أثرا نافعا اللهم إلا المآسى التى سبق ذكرها على صفحات هذا الكتاب .

واليوم وبعد مرور مائتى عام يأتى المهزمون فكريا المولعون بكل ما هو غريب ، يريدون منا أن نضيع هويتنا ونلغى ذاكرتنا التى تمثل أصالتنا العقديّة والفكرية والأخلاقية والتاريخية ، بل والعصرية أيضا للذوب فى غيرنا ونكون تابعين لهم فى كل شىء ، حلوا كان هذا الشىء أو مرا ، خيرا كان أو شرا .

وصدق رسول الله ﷺ الذي حذر الأمة من هذه التبعية ، ونبهها من عبث أمثال هؤلاء .

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا ، وذراعا ذراعا ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم . قلنا يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ »<sup>(١)</sup>

قال عياض : " الشبر والذراع والطريق ودخول الجحر تمثيل للاقتداء بهم في كل شيء مما نسهى الشرع عنه وذمه . " <sup>(٢)</sup>

وقوله ﷺ : « فمن » هو استفهام إنكار ، والتقدير : فمن هم غير أولئك . <sup>(٣)</sup>

فهل يريد أدعياء التنوير منا أن نسلك جحر الضب على ضيقه وتعرجه وظلامه ؟ وهل تنبه الأمة لخطر ما يحاولون جرحنا إليه حتى ننسلخ من ديننا ؟

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(١) الصحيح على الفتح ٦٦/٢٨ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لتبعن

سنن من كان قبلكم .

(٢) الفتح على الصحيح ٦٦/٢٨ .

(٣) المصدر السابق ٦٦/ ٢٨ .



## ثبت بمراجع الكتاب .

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- أثر الحروب الصليبية على الفكر الغربي الحديث . محمد أسد .  
١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .
- ٣- أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ . القضية الفلسطينية . د . جمال  
عبد الهادي وزوجته . دار الوفاء . الأولى . ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- ٤- أسس نظام الحكم الإسلامي وخصائصه . د . فرج محمد الوصيف .  
إياك كوي ستر . المنصورة . الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .
- ٥- الإسلام عبر التاريخ انتصارات وانتكاسات . عبد الغنى سعيد . القاهرة  
للثقافة العربية . بدون .
- ٦- البداية والنهاية . ابن كثير . دار الفكر العربي . بدون .
- ٧- بونابرت في مصر . ج . كرستوفر هيروльд . ترجمة فؤاد اندراوس .  
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م .
- ٨- تاريخ الرسل والملوك . الطبرى دار المعارف . الثالثة . بدون .
- ٩- تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار . الجيرنى . بيروت . بدون .
- ١٠- تاريخ الدولة العلية العثمانية . محمد فريد بك دار الجيسل . بيروت .  
١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
- ١١- تاريخ العالم الإسلامى . د . إبراهيم العدوى . مكتبة الأنجلو ١٩٨٦م .
- ١٢- التاريخ الإسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية . د . إبراهيم

العدوى . مكتبة الأنجلو . بدون .

١٣- تاريخ الحركة القومية وتطوير نظام الحكم في مصر . عبد الرحمن الرفعى .  
دار المعارف . جـ ١ السادسة ، جـ ٢ الخامسة .

١٤- التاريخ الإسلامى . محمود شاكر . المكتسب الإسلامى . الثانية .  
١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

١٥- تبشير النهضة في العالم الإسلامى . د. محمد ضياء الدين الرئيس . دار  
الأنصار . الثالثة . بدون .

١٦- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة . السيوطى . عيسى الحلبي .  
الأولى . ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

١٧- حصار العرب . غوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر . لجنة التأليف  
والترجمة والنشر . ١٩٤٥م .

١٨- الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة د. ليلى عنان دار الهلال  
(٥٠٠) ١٩٩٢م .

١٩- الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير . د. ليلى عنان . دار الهلال (٥٦٧)  
١٩٩٨م .

٢٠- الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ . الجزء الثانى . د. ليلى عنان . دار  
الهلال . العدد (٥٧٤) . جمادى الثانية ١٤١٩هـ / أكتوبر ١٩٩٨م .

٢١- الخطط . المقرئى . دار التحرير . بدون .

٢٢- دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر محمد عبيد الله  
عنان . مكتبة الخانجي . الرابعة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

- ٢٣- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا . محمود شاكر . دار الهلال (٤٨٩) ١٩٩١ م .
- ٢٤- صحيح البخارى . الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى . دار الشعب . بدون .
- ٢٥- صحيح مسلم بشرح النووي . دار الريان للتراث . القاهرة . الأولى . ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م . المطبعة المصرية ومكتبتها . بدون .
- ٢٦- العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة . د . سفر الحوالى . مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى . السعودية . بدون .
- ٢٧- الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا . محمد الغزالى . دار الصحوة . ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .
- ٢٨- الغزو الصليبي والعالم الإسلامى د. على عبد الحليم محمود . دار التوزيع والنشر الإسلامية . الأولى . ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .
- ٢٩- فتح البارى شرح صحيح البخارى . ابن حجر العسقلانى . دار الريسان للتراث . الأولى . ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .
- ٣٠- فن الحرب الإسلامى أيام الحروب الصليبية . بسام العسلى . دار الفكر . بيروت . الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
- ٣١- قضية تحرير المرأة . محمد قطب . مكتبة السنة بالقاهرة . الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

- ٣٢- المواجهة على المرأة المسلمة تاريخ ووثائق . د. سيد فسر ج . دار الوفاء الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م .
- ٣٣- مصر الإسلامية وتاريخ الخطوط المصرية . محمد عبد الله عنان . الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ٣٤- مصر في عصر الأيوبيين . د. السيد الباز العريفي . مطبعة الكيلاني الصغير بدون .
- ٣٥- معركة المصحف في العالم الإسلامي . محمد الغزالي . دار الكتب الحديثة . الثانية ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م .
- ٣٦- معالم التاريخ الإسلامي المعاصر . أنور الجندي . دار الاعتصام . بدون .
- ٣٧- موسوعة تاريخ مصر . أحمد حسين . دار الشعب . بدون .
- ٣٨- موسوعة التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية . د. أحمد شلي . مكتبة النهضة المصرية . السادسة . ١٩٨٣م .
- ٣٩- المنصورة قاهرة الصليبيين . نقابة الأطباء بالدقهلية . الأولى . ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .
- ٤٠- مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام . محمد عبد الله عنان . الخانجي . الرابعة . ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م .
- ٤١- مصر في القرن الثامن عشر . محمود الشرقاوي . الأنجلو . ١٩٥٦م .
- ٤٢- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . ابن تغردى بردى . الأتليكي . دار الكتب . بدون .
- ٤٣- نابليون في الأزهر . د. نجيب الكيلاني . المختار الإسلامي . بدون .

- ٤٤- وحى القلم . مصطفى صادق الرافعى . دار الكتاب العربى . بيروت .  
بدون .
- ٤٥- ودخلت الخيل الأزهر . محمد جلال كشك . الزهراء للإعلام العربى .  
الثالثة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .
- ٤٦- يوسف باشا القرماتلى والحملة الفرنسية على مصر . د . محمد  
عبد الكريم الواقى . المنشأة العامة للنشر والتوزيع . ليبيا . الأولى .  
١٣٩٣هـ / ١٩٨٤م .
- ٤٧- الأهرام ( الجريدة ) ١٧/٢/١٩٩٨م .
- ٤٨- الأزهر ( المجلة ) ربيع الأول ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- ٤٩- الشعب ( الجريدة ) ١/٩/١٩٩٨م ، ٢/٣/١٩٩٨م .

## فهرست الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٧	تمهيد
٧	شور الدين
٨	عالية الإسلام
١٠	مكانة مصر بالإسلام
١٣	الفصل الأول : حملة لويس "الحملة الصليبية السابعة"
١٣	تجريد الحملة بقيادة لويس
١٣	الاتجاه إلى مصر
١٦	تحرك لويس نحو القاهرة
١٨	معركة المنصورة
١٩	تورانشاه واشتعال نيران المعركة
٢١	انهزام الصليبيين وأسر لويس
٢٥	دروس يجب ألا تنسى
٣٠	المخطط الرهيب

٣٣	الفصل الثاني : نابليون وتنفيذ المخطط
٣٣	تحرير الحملة
٣٤	الدور الاستشراقي في تحرير الحملة
٤٠	تليس نابليون على المسلمين
٤٣	الأغراض الحقيقية للحملة الفرنسية ومآسيها
٤٣	أولا : وأد اليقظة الإسلامية
٤٨	ثانيا : سرقة نفائسنا العلمية
٤٩	ثالثا : الاعتداء على حرمة الأزهر
٥٢	رابعا : التنكيل بقيادة الأمة
٥٧	خامسا : التنكيل بالشعب
٦٣	سادسا : استنزاف حيرات البلاد بالضرائب الباهظة وغيرها
٦٦	سابعا : قرية جيل من بني جلدتنا يقوم بالدور الفرنسي في ديار الإسلام
٦٧	ثامنا : تفتيت الوحدة الوطنية
٧٠	تاسعا : القضاء على المظاهر العمرانية الجميلة
٧٤	عاشرا : السعي لنشر البدع والمنكرات
٧٧	حادى عشر : نشر السفور والخلاعة والمجون "مهزلة حركة تحرير المرأة"
٨٤	ثاني عشر : إفساد البرلمان
٩٣	الحملة في كتابات الفرنسيين

١١٢	مهزلة الاحتفال بحملة نابليون
١١٧	الخاتمة
١١٩	ثبت بمراجع الكتاب
١٢٤	فهرست الموضوعات





---

رقم الإيداع بدار الكتب : ٩٨ / ١٤٤١٣

---

الترقيم الدولي 6 - 003 - 311 - 977 I. S B. N:

---

مطبعة جزيرة الورد

المنصورة - نوسا البحر

تليفون: ٤٤١١٩١



دار الكلمة للنشر والتوزيع... مصر... المنصورة

٣٨ ش الثورة (السكة الجديدة) ت ، ف : ٣٤٣١١٥ ص . ب : ١٦٧



To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)